



BULLETIN DE L'INSTITUT FRANÇAIS D'ARCHÉOLOGIE ORIENTALE

en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne

BIFAO 3 (1903), p. 25-68

Georges Salmon

Un texte arabe inédit pour servir à l'histoire des chrétiens d'Égypte.

Conditions d'utilisation

L'utilisation du contenu de ce site est limitée à un usage personnel et non commercial. Toute autre utilisation du site et de son contenu est soumise à une autorisation préalable de l'éditeur (contact AT ifao.egnet.net). Le copyright est conservé par l'éditeur (Ifao).

Conditions of Use

You may use content in this website only for your personal, noncommercial use. Any further use of this website and its content is forbidden, unless you have obtained prior permission from the publisher (contact AT ifao.egnet.net). The copyright is retained by the publisher (Ifao).

Dernières publications

9782724711714	<i>La pensée et la pratique pharmacologiques d'Avicenne</i>	Sylvie Ayari
9782724711899	<i>BCAI 40</i>	
9782724711288	<i>Karnak-Nord XI</i>	Colin Hope
9782724711622	<i>BIFAO 126</i>	
9782724711059	<i>Les Inscriptions de visiteurs dans les Tombes thébaines</i>	Chloé Ragazzoli
9782724711455	<i>Les émotions dans l'Égypte Ancienne</i>	Rania Y. Merzeban (éd.), Marie-Lys Arnette (éd.), Dimitri Laboury, Cédric Larcher
9782724711639	<i>AnIsl 60</i>	
9782724711448	<i>Athribis XI</i>	Marcus Müller (éd.)

UN TEXTE ARABE INÉDIT

POUR SERVIR À L'HISTOIRE DES CHRÉTIENS D'ÉGYPTE

PAR

M. GEORGES SALMON.

L'attention a été attirée depuis longtemps déjà, par les travaux de MM. Amélineau et Bouriant, sur le fonds chrétien des manuscrits arabes de la Bibliothèque nationale. Si ces œuvres sont pour la plupart en une langue fort incorrecte et rappelant le tour de phrase et les idées coptes, elles nous apportent souvent, au milieu d'un fouillis de légendes et de récits miraculeux, d'utiles renseignements pour l'histoire si obscure des chrétiens d'Égypte⁽¹⁾. Le manuscrit 132 est un des plus intéressants de cette collection⁽²⁾. Daté de l'an 1345 des Martyrs (1629 J.-C.), il renferme, dans ses 176 feuillets, dix-neuf pièces différentes, pour la plupart des homélies et des panégyriques de Saints.

Au folio 59 commence le récit de la fondation des deux églises de S^{te} Barbe et S^t Serge (Barbára et Aboû-Sardja) à Miṣr. Outre que ce récit est en quelques points en contradiction avec les renseignements que nous donnent les historiens des églises d'Égypte, nous y avons trouvé, en le parcourant, quelques anachronismes qui nous portent à donner à ce document une date de beaucoup postérieure à celle qui semble indiquée dans le texte. Le récit est d'ailleurs intéressant à plus d'un titre; il nous fournit entre autres matières un curieux épisode des luttes des Croisés et des Musulmans sous les murs de Damiette. Aussi croyons-nous utile de faire connaître aux historiens de l'Égypte

⁽¹⁾ Dans une de ses dernières séances, le 1^{er} Congrès de l'Histoire des Religions, tenu à Paris en 1900, a émis le vœu qu'un comité de savants dresse un inventaire de toute la littérature arabe chrétienne, dispersée en manuscrits dans les bibliothèques de l'Europe. Cet inventaire révèle-

Bulletin, t. III.

rait bien des documents qui, réunis en *miscellanées* sous des titres vagues, nous sont actuellement inconnus. Cf. *Actes du 1^{er} Congrès de l'Histoire des Religions*, I, p. 4.

⁽²⁾ Cf. DE SLANE, *Catalogue des Manuscrits arabes de la Bibliothèque nationale*, I, p. 28.

ce document inédit. Nous donnons donc l'arabe en partie redressé, c'est-à-dire corrigé des fautes nombreuses que le copiste y a laissées, puis la traduction française et enfin quelques observations critiques sur le texte, suivies d'une étude historique sur les faits rapportés dans ce document⁽¹⁾.

I. TEXTE ARABE.

بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد
نبتدى بعون الله تعالى وحسن توفيقه بنسخ خبر
بنيان الكنيستين المكرمين بربارة وابو سرجة
الذين⁽²⁾ بنوا بمصر المحروسة وكان بنيانهم في ايام
CERETINOC بواسطة الوزير القبطي من اولاد
الاج جين يمنا على الخليفة واذن له بذلك وشرح
فيه جميع ما جرى له من اجل الامير الذي كان يبغضه
ويصادره قدام الخليفة بسلام من الرب امين،

قال اتفق في ايام بعض الخلفاء الذي تولوا على مصر واماها انه كان انسان قبطي من اولاد الاج وهذا المذكور كان كاتب سر الخليفة وكان عزيزا عنده وبلغ من جاه النصارى عند هذا الخليفة الى ان حكاه على كورة مصر وكل اماها وما كان فوق يده يد الايد للخليفة وكان هذا النصراني رحوم اديب متواضع قريب من الناس يقضى حوائجهم وكان يخدم الصغير والكبير ويسلك مع الاسلام الاديب والحرية ويكن نظره عن حرمهم⁽³⁾ ولا يشتم احدا ولا يسفه ولا يخاصم ولا يتعاون على احد من الاسلام وكان يتطلع على الفواحش ولا يهتك احدا وينظر بعينه ويستربذيله⁽⁴⁾ ومن كان من الاسلام في ضم ازال ضيمه ومن كان في جور خلصه منه وما كان له شغل الا عمل الاحسان مع كل الناس فحبوه الاسلام الخاص منهم والعام والجيد منهم والردى والامير منهم والوضيع وكانوا يشكروا منه عند الخليفة وجاهه يطلع ويهني⁽⁵⁾ ولا يسمع فيه كلام حاسد

(1) L'importance de ce document nous a été signalée par M. P. Casanova, qui a eu l'occasion de l'étudier pour sa reconstitution topographique de Fostât et de ses églises coptes.

(2) Sic pour التي.

(3) Ms. جرمهم.

(4) Mot douteux.

(5) Ms. يهني.

وانه بعض الايام في جمعة الصلبوت العظيمة والفصح الجيد توجهوا نساءه وعايلته الى بعض الكنائس فتعرضوا لهم صغار المسلمين وجهالهم وصاروا يشتموهم ويرشوهم لانهم تحققوا انهم من نساء بعض النصارى لان المرأة النصرانية تبان من المسلمة فلا برحوا يرفوهم ويشتموهم ويسفهاوا عليهم ويرشوهم بالتراب الى ان فصلوا الكنيسة فلما فرغ العيد ورجعوا الى منزلهم فقالت الست لزوجها جميع ما جرى عليهم في الطريق من اولاد المسلمين وجهالهم وحلفت انها ما بقيت تروح كنيسة فقال لها زوجها طيبى قلبك لا بد ما اجتمع بالخليفة واخذ منه امر في عارة كنيسة عند بيتي فقالت له هذا قتل لم يكن ان نبى كنيسة في ايام المسلمين (fol. 60) فقال لها سوف يكون ما يريدته الله تعالى وان زوجته قالت له ان وقف الله ان تاخذ الامر بعارة كنيسة تكون على اسم القديسة المختارة شفيعتى بربارة ويكون جسدها فيها فقال لها طيبى قلبك واشرح صدرك وقرى عينك لا بد ان اجتهد كل اجتهادى وابذل كل اموالى وجاهى في عارة كنيسة فقالت له الله تعالى يقيم كلمتك ويبلغك بقصودك ويحتن عليك القلوب وانه من ذلك اليوم بقى يخدم الناس بالاكثر ويكرمهم ويقضى حوائجهم ولا سبما القضاة والحكام والشهود الذين هم مستخلفه من الاسلام وارشارهم والحكام انه اخذ بقلوبهم حتى حيوة جميعهم ومالت نفوسهم اليه واكرموه غاية الاكرام وبقوا يثمنوا له حاجة وكان ينتظر يوم يكون فيه دقيقة مباركة وساعة سعيدة موافقة وكان حكيم النفس يعرن العلوم كلها وفي يوم من الايام طلع الى خدمة الخليفة رآه مشروح الصدر ضاحك السن طيب العيش فخدم مثل العادة وعطا للملكة حقها من الخدمة الواحية وفي ذلك اليوم وفقه الله تعالى في كل حركاته فدام للخليفة الى كل الحاضرين من الامراء والمحتشمين والنقباء والحجاب وقال لهم والله هذا النصرانى هو حركة⁽¹⁾ دولتى وبغيره ما كان ينتظم للملكة حال فتكلموا جميع الحاضرين على قدر اهوائهم لان فيهم من كان يحسده وفيهم من كان يحبه وفيهم من قال ما تغتفر الدنيا من احد⁽²⁾ وفيهم من مكلم كلمة موافقة اهوا للخليفة وشكر ونشر وفيهم من خان عليه واهم للخليفة منه وقال يامولانا يا جين هذا نصرانى فقال للخليفة انا اريده يكون نصرانى لان النصرانى يخاف على عرضه ويخشا⁽³⁾ عليه دينه ولا يستجرى يقع في مكروه فقال للحاسد يامولانا صحح بالذى تقوله ولا مرد لقولك وان ما كل العداوة يرجا لها صالح ومحبة صردة⁽⁴⁾ الا عداوة المذهب

(1) Ms. حركت.

(2) Ms. احدا.

(3) Ms. يخشه.

(4) Passage douteux.

لا يرجا لها صلح والله ما يقدر هذا النصراني على مضرة الاسلام ويخليها قال فاعتاظ الخليفة من ذلك للحاسد وحى مزاجه واستشاط بالغضب واحتدّ في نفسه على ذلك الانسان ولم يبين له غضبه لكن اخفا ما في نفسه واطهر الابتسام والفرج والنشاط ولوقته قام من المجلس و اشار للامراء بالانصران فتوجّهوا وذلك للحاسد معهم وقد ندم على كلامه (fol. 61) ونحوه⁽¹⁾ الامراء فقالوا له كل كلامك في عرض هذا النصراني ذلك دليل حسدك وشرك يقع على راسك واعلم ان من جملة ادب الاجناد خدام الملوك متابعتهم على هوا نفوسهم والامتثال لاوامرهم والسكون في وقت غضبهم وقلة الكلام في مجالستهم ورد جوابهم بما يلائم اعراضهم وعدم المهاجمة في الكلام بالجملة الا جواب لا غير ويكون للجواب لهم كلام قليل وخبر مقنع كثير القوائد وانت اليوم كنت بصد هذا كله لان الخليفة شكر هذا النصراني ديبته⁽²⁾ انت مدحه سببته⁽³⁾ انت وقد قال بعضهم لا تقول للحبب في من يجب الا ما يجب كيلا تسمع ما لا تحب ولا يرحوا الامراء يعنفوه وياكلوا قلبه بالكلام والملام حتى راح الى بيته بيت معقود في جلدة فاعلم زوجته بما جرى فوخته اكثر فاشار اليها ان تقوم تروح الى زوجة النصراني وتدخل عليها وتأخذ معها هدية اليها وتعرفها الكلام كله الذي جرى⁽⁴⁾ في مجلس الخليفة وقول لها قد اخطأ وهو يقول استغفر الله فقامت مضت الى بيت زوجة النصراني ومعها هدية سنّية وهي خلعة مئنة من ملابسها ولما دخلت الى عند زوجة النصراني وللوقت رحبت بها وكرمتها واهلتها واجلستها في ارفع مكان وعظمت مقدارها الى غايته ما يكون لانها امرأة امير على كل حال من خيار اولاد الناس ومن اكابر الاسلام ولما جلست كانت طيبة للحديث كثيرة الهزل شرعت ان تباسط زوجة النصراني وتفحكها واحكت لها حكايات توافق النسوان واخذت بجامع قلبها بحلاوة كلامها وعدوبة لفظها وحسن محاضرتها وبعد هذا كله قالت لها زوجة النصراني يا ستي لعل حاجة او خدمة والله لقد جهلت منزلي وشرفيتيني⁽⁵⁾ بنقل خطواتك العريضة فقالت لها اعلمى يا حرة النصراني ان اللسان عدو الانسان وقال اللسان للقفاء كيف اصبحت اليوم جاوبه القفاء والله لو سلمت منك انا طيب ويا حرة النصراني اللسان عدو القفاء وعلى الانسان مضرة الا لسانه فقالت لها زوجة النصراني ايش معنا⁽⁶⁾ هذا الحديث بيني لى اصل هذا

(1) Ms. ونحوه.

(2) Ms. ديبته.

(3) Ms. سببته. Passage douteux.

(4) Ms. جرا.

(5) Sic pour شرفيتيني.

(6) Sic pour معنّى.

وسببه وباطنه وظاهرة لانها ما كان لها علم بما جرى للامير وزوجها في القلعة قدام الخليفة فاعلمتها زوجة الامير بكل ما جرى⁽¹⁾ وكل شئ تحقق⁽²⁾ في مجلس الخليفة وقالت لها قد اخطأ⁽³⁾ وعثر بلسانه وتكلم في حق زوجك بكل ردى قدام (fol. 6a) للخليفة وانا اسالك تساليه من قبلى يزىل من نفس الخليفة جميع الغيظ⁽⁴⁾ ويتكلم في حق الامير بصفتنه لانه كله خير وساير الناس شاكرين من هذا⁽⁵⁾ النصراني يتعرف حق دخولى منزله ويرجع لخشاشه اصله ولا يحمل حقد في الامير وبعد هذا كله لا يعاند الامراء ويزرع معهم الخير بخصده جميل والى خوفته من تغلب المدول وان كان هذه الخليفة يعزه ويكرمه ويحبه يحى غيره بدله ويبغضه ويرد له وانى يا ست حدريه⁽⁶⁾ وخوفيه واشتهى⁽⁷⁾ تقبلى منى هذا المقدار للخير وهو ما يصلح الا لك على سبيل للخير والحبه لانها هديه قليلة حقيرة وانها اخرجت لها للقلعة فدهشت لها الامراة النصرانية وفرحت بها واخذتها منها واوعدها بكل خير وبيهاهم في الحديث الا والوزير صاحب البيت قد حضر من القلعة من عند الخليفة وهو فرحان سرور متبجح منشرح مبسوط النفس والامل وسبب فرحه ان الخليفة استدى به وطلب اليه بعد انصراف الامراء من خدمته وعرفه بجميع ما قاله ذلك الامير في حقه وامره بعد هذا ان يختص⁽⁸⁾ على كل امواله وسعته وبساتينه وحاماته وفنادقه وكل امواله واملاكه وناوله خاتمه وامره ان يختم عليهم وبييع⁽⁹⁾ الذى يحبه بيعه ويحمل كل الثمن لبيت المال وما لا يجب بيعه يكتبه في ديوان المال واستدى للخليفة بعد هذا بالثلاثة امراء وامرهم ان يمسكوا ذلك الامير ويرمونه للحديد ويغلقوه ويوضعوا الاعتقال عليه فنزلوا في سُرعة الوقت وهاجموا في منزله وقبضوا على الامير المذكور وسلسلوه وارموا الاعتقال وزوجته في بيت النصراني ولم تعلم وان الوزير اخذ الخاتم من الخليفة ونزل من عنده ولا قدر يرد كلامه في فمه وخاف من سخطه وكان يعنيه ان يتجايل⁽¹⁰⁾ بكل حيله ويخلص الامير في وقت غير هذا لانه راي الخليفة قد بالغ الحد في الغيظ⁽¹¹⁾ والغرض فلورد عليه للجواب ضرب عنقه وفرح على كل حال على علو رتبته عند الخليفة وكيف انه فضله على كل اكابر الامراء ولما نزل هذه الوزير الى بيته وجد امراة الامير

(1) Ms. اجرا.

(2) Ms. اتفق. Peut-être faudrait-il lire اتفق.

(3) Ms. اخطى.

(4) Sic pour غيظ.

(5) Ms. هذه.

(6) Ms. حدريه.

(7) Ms. اشقى.

(8) Ms. يخطا.

(9) Ms. يبيع.

(10) Sic pour يتجاول.

(11) Ms. الغيظ.

المذكور في بيته فسأل من زوجته عن الخبر فاعلمته بامارة الامير وجميع ما قالته من الاول الى الاخر وخافته من عاقبة الامر ونعته وحذرتة⁽¹⁾ وقالت له اخر كلامها ان الامراء ما يرموا ببعضهم لبعض واخشى ان يصطلحوا⁽²⁾ عليك فاعل من الخبر بجهودك ثم عرفته بحديث للخلعة ولم تخف عنه شئ (fol. 63) لانها كانت امراة مباركة خيرة دينة ملتفتة لمنزلها مطبقة⁽³⁾ لاحوالها واحوال عايلتها ولما سمع زوجها بخبر للخلعة زجر زوجته وشتمها وقال لها كيف اخذتى منها للخلعة بغير مشورتى عيديها اليها في الساعة وفي الوقت للحاضر ثم جاء الى عند امراة الامير وخدمها ورجب⁽⁴⁾ بها واکرمها غاية الاكرام وعرفها بما جرى للامير واوهها ان هذا ما هو من جهته الا ان المولى⁽⁵⁾ للخليفة كان مواخذه بذنوب اخر كثيرة غير هذا الذنب وفي اخر كلامه طيب قلبها وحلف لها ان يبذل كل مجهوده في خلاصه ويربيل من نفس للخليفة كل للحقد الذي من جهته ورد اليها للخلعة واعتذر لها وقال لها كنت اشتغى لو حضرت الى منزلى في يوم غير هذا واما الايام كثيرة وسوف بيان لك للخير الذي اعلمه معه وتايبطى هذا الايام قليلا ويتخلص ويرتد اليه كل املاكة وما اخلية ينزل من قدام للخليفة الا بخلعة ويكمد الله عيون الحاسدين والمبغضين فطيبى خاطرک واشرى صدرک لما يكون الا خير وانها ارتمت على رجليه تقبلها فرفع راسها وقبل قدميها وكثر الايمان المعظمة انه يسقى في خلاصه ويجتهد قدام للخليفة في كل كلمة طيبة في حق الامير وانها خرجت من عنده وفي مهومة باكية العين حزينة القلب على خراب منازلها وذليها بعد العز القام وللجاه العجم فاما الوزير المذكور فانه افكر في ذاته ان الامراء ما يهون عليهم ما جرى⁽⁶⁾ على الامير ولا سيما من تحت راس نصرانى فخان من سوء عاقبتهم واجتماع كلمتهم عليه وانه لوقتته جاء الى بيعة المعلقة وهى الكنيسة الكبيرة الكاتوليكية بمصر وشفع بجسد القديسة بربارة ومرع وجهه على عظامها وسألها ان تحمّل⁽⁷⁾ عنه شر الامراء وتساعدته على خلاص هذا الامير وعمل عهد قدام الهيكل انه يبني كنيسة كبيرة على اسمها وتكون جيدة واسعة من ماله وينقل جسدها اليها وفي تلك الساعة اعطى للقيم عشرين درهم وامره ان يشتري بها شمعة واحدة⁽⁸⁾ كبيرة ويقيدها قدام جسدها الى تفرغ وبادر سرعا وجاء الى اكبر الامراء ومشيرهم وزعيمهم وكبيرهم ومقدمهم وسأله

(1) Ms. حذرتة.

(2) Ms. يصطلحوا.

(3) Ms. متبقة.

(4) Ms. رجب.

(5) Ms. المولى.

(6) Ms. جريا.

(7) Ms. تحمّل.

(8) Ms. واحدة.

ان يطيب قلب الخليفة على هذا الامير فقال له والله يا نصراني انك من اولاد الجلال وفيك مروءة وخير وفتوة وجودة⁽¹⁾ لانك تكافى الشر بالخير (fol. 64) هكرا⁽²⁾ تكون الناس وخضع⁽³⁾ بين يديه وقال يا مولانا عبدكم وخدامكم ولما سخط المولى للخليفة اعزّه الله تعالى وغضب على الامير ورسم لى بمرسومة واعطاني خاتمه وامرني بامر وهو في غضبه وقوة ارتعاجه وسخطه وسطوته فلو اردت عليه للجواب في تلك الساعة الردية قطع رقبتى فقال الامير احذر يا نصراني من سخط الخليفة وانت ان شاء⁽⁴⁾ الله نهارا غدا اجل امره واحتاط على كل امواله هذا ولا تنهون في الامر تروح روحك ومالك وتسبى⁽⁵⁾ عيالك ويفسد كل نظامك وانا يا نصراني انحك فقال يا مولانا ما في امره حفلة ولا لعلته طيب فقال له الامير اجل بالمرسوم وبعد يومين نسعي في خلاص هذا الرجل وانا اجتمع بكل الامراء ويتحدث في حديثه ويخلصه وما يجري الا للخير والسلامة روح يا نصراني وطيب قلبك ولما كان الصباح ختم النصراني على كل امواله واملاكه واثاقه ولا اباع له شي بدرهم الفرد ولا فرط له في شي من ماله وصار منتظر الامر والفرج وما كان له همّة كل يوم الا سأل⁽⁶⁾ القديسة الطاهرة بربارة لتسكن⁽⁷⁾ هذه الثوراة وتهديها وبقي ملازم ابواب الامراء والتضرع لهم حتى يطيبوا قلب الخليفة وبعد هذا استدعى الخليفة بالنصراني الوزير وقال له ايش عملت مع هذا الصانع الفاعل الكلب المخامر فقال يا مولانا كل امواله واملاكه تحت الختم وفي تلك الساعة قامت الامراء جميعهم وكشفوا روسهم وخضعوا وسألوا الخليفة فيه فلما رأى الخليفة الامراء جميعهم كلمة واحدة وعصبة في السؤال التزم بمداراتهم لكنه لزم ناموس الملكة وقال غطوا روسكم يا امراء واجلسوا فغطوا روسهم وجلسوا وان الخليفة في تلك الساعة امر باحضار الامير المذكور من الاعتقال فحضر وهو في غاية الذل والاهانة مغلغل في رقبتة مقيد مكثف وقد رأى في نفسه الهوان الوان فلما اوقفوه قدام الخليفة بذلك الحال⁽⁸⁾ الروى قال له الخليفة ويك يا كلب انظر بحالك فهذا الذل احق بك يا خسيس يا ديوت ومن هوانت حتى تنازعني وترد في فمي وتضاد كلامي واشكر انا تدم انت فقال يا مولانا العفو عفا الله عنكم وانا قد اخطبت⁽⁹⁾ وزل لساني فاعفوا عني واصح عن هذه الغلظة وانا اتول استغفر الله استغفر الله قال (fol. 65) فسكن غضب الخليفة لانه كان قريب المرجوع

(1) Ms. حودة.

(2) Ms. هكرا.

(3) Ms. حصع.

(4) Ms. تشا.

(5) Mot douteux.

(6) Sic pour Sâle ou سؤال.

(7) Ms. نى تسكن.

(8) Ms. الحال.

(9) Ms. اخطيط.

حليم رانس فضيل مدارى مسايس ولاجل هذا طالت مدته في الخلافة وانه امر ان يقلعوا الغل من رقبته والقيد من رجليه وفي الوقت للحاضر طيب قلب الامراء ورفع⁽¹⁾ للحوطة عن منازلهم واملاكهم جميعها لكنه قال الزم بيتك ولا تربي⁽²⁾ وجهك فنزل من عنده الى منزله ولم يستجري يخرج من الباب وكانت الامراء تجي الى عنده ويسألوه ويطيّبوا قلبه ويقولوا له الخبير يكون قليل قليل فقال⁽³⁾ لهم يا مسلمين هذا كله من تحت راس النصراني والله ان هذه غبينة كبيرة ومصيبة عظيمة فقالوا له كلهم من الواجب اذا اقام صاحب الامر قضية خدمتها الناس مع ان النصراني رجل جديد⁽⁴⁾ واسطة خير ولولا في هذه النوبة ما خلصت انت لانه تردّد اليانا وسألنا والزمانا كلنا الى ان كشفنا روسنا وخدمنا مولانا للخليفة وسألناه فيك حتى خلصت ومع هذا كله وانت تذكر النصراني بالرداء كقّ لسانك وامسك فك عن ذكر هذا النصراني لثلاث تشق في هذه الدفعة واعلم لو تولا احدا من المسلمين موضع هذه النصراني ما جرى علينا خير وهذا النصراني اخير لنا من المسلمين لانه يحقر نفسه لعله انه ذمي ذليل وليخاف على نفسه ودينه والله ما فينا من يضر لهذا النصراني ضمير نجس وانت من حسدك تعمل هذا كله وحسدك يرجع عليك واغتاضوا منه وقاموا من عنده وخلوه في دارة وحلفوا ما بقوا يجوا اليه وكل هذا عناية من الله تعالى ومن القديسة بربارة هذا الوزير النصراني المبارك وسلمته⁽⁵⁾ من غايلة الامراء ومكرهم وشرهم واجتمعوا الكل على محبته واحتملوا عليه ورفعوا منزلته وصاروا ايضا⁽⁶⁾ يشكروا منه ، ثم بعد هذا انفق في هذا الزمان ان الافرنج نزلوا على دمياط في سنة اربعمائة خمسة وستين من سنين الاسلام وضواحيها ونواحيها وان الاسلام التّموا وحشودا حشودا كثيرة وطلبوا وعسكروا ونفقوا نفقات كثيرة في المعسكر وركب للخليفة هذا المذكور ومعهم جيش كبير يهلك عساكرها جوج وماجود⁽⁷⁾ وعسكر الصرود ولا برج للخليفة سائر والعسكر والمواكب والكتائب من خلفه ومن قدامه وعن يمينه وعن شماله الى ان وصل الى قرب ضمياط⁽⁸⁾ فامر ان ينادى للعساكر بالراحة فنصبوا خيهم في ذلك الموضع لانه كان مرج متسع فيه الماء والمرعا ولوقته وساعته رتب اجناد (fol. 66) فنظر الطرقات وقال لهم اى من وجدته من الناس راج او جى امسكوه وفتشوه واحضروه اليّ لاني

(1) Ms. رفع .

(2) Ms. تربي .

(3) Ms. فقال .

(4) Ms. جديد .

(5) Ms. سلمته .

(6) Ms. اهدا .

(7) Sic pour ماجوج .

(8) Sic pour دمياط .

اخاف من جاسوس فسكوا كل الطرقات وسبجوها⁽¹⁾ وربطوها بالرجال والاجناد وبقوا كل من اجناز عليهم ويقبغوه وعشيّة النهار بحضوروا كل الناس الذى وجدوهم عابرين في الطريق قدام الخليفة فيسأل عن حالهم ويكشف امورهم كشفًا شافيًا ويفتش تفتيش عظيم وبعد ذلك يعتقل الكل في اللبوس وبالجملة انه منع الواصل على ضمياط⁽²⁾ في البر والبحر وكل مركب يقعوا بها في البحر متوجها الى دمياط بجنطة او متجر يغرقوها ويشنقوا رؤسها ونواتيها⁽³⁾ فاقاموا هكذا في ذلك الموضع مدة شهر والافرنج جواء ضمياط⁽⁴⁾ والابواب مغلقة⁽⁵⁾ والمنجنيقات مرسية على الاسوار⁽⁶⁾ وهم متكرزين على المدينة من الاسلام والاتفاق ان ذلك الامير الذى كان حبس ولزم بيته من تحت رأس الوزير النصرانى الذى قدمنا ذكره كان للخليفة قد طيب قلبه واخلع عليه وجّهته الى الافرنج فلما تحقق هذا الامر ان الخليفة قد رتب الاجناد تربط الدروب والطرقات تمرانه وجد له بهذا فرصة لهلاك الوزير النصرانى وحيلة في قطع رقبتة⁽⁷⁾ وخراب منزله وكان بالاتفاق الردى لذلك الوزير النصرانى المقدم ذكره كان له غلام نصرانى قد غضب عليه نفاه⁽⁸⁾ من منزله بعد ان قتله قتل الموت وعزاه من نياحه ونفاه من بيته لانه كان قد افسد بعض جواريه لما اطّلع على قضيتته مع الجارية وانه اخرج الجارية من بيته وانفى الغلام فضى الى الامير الذى هو ضد الوزير وخدم عنده في كياذ الوزير حتى يقهرة ويغيضه ويفرح قلبه ويكيدة وان الامير قبله اليه ورتبه سايس للخيل لانه كان خبير بهذه الصنعة واخذه صحبتته في التجريدة للافرنج وصار بطول الطريق يقول للغلام جاهل عديم العقل قليل الحساب مفسود الرديّة ليس يعرف حيل الناس ومكرهم فصار يحدث الامير عن الوزير بكل فاحشة ردية ولم يبرح هذا الغلام في حديث الوزير وهو يتكلم في حقه بكل امر نجس على قدر غرضه وبغضه⁽⁹⁾ منه حتى وصلت العساكر الى الموضع الذى ينزلوا فيه حين رتب للخليفة الرجال والاجناد ينظروا (fol. 67) الدروب من جاسوس كما تقدم القول وان الامير استدى⁽¹⁰⁾ بذلك الغلام في السرّ وقال له اتحننى او تحبب النصرانى فقال له يا مولانا والله والله ما عندى اليوم ابغض من صورة ذاك النصرانى والله ان قدرت على ذبحه⁽¹¹⁾ ونجته وشربة من ذمه مع

(1) Mot douteux.

(2) Sic pour دمياط.

(3) Ms. نواتيتها.

(4) Sic pour دمياط.

(5) Ms. مغلقة.

(6) Ms. الاصوار.

Bulletin, t. III.

(7) Ms. رقبته.

(8) Ms. بقاء.

(9) Ms. عبضه pour غيضة.

(10) Ms. استدعا.

(11) Ms. ذبحه.

نصراني مثله لاني نحتته وخدمته مدة ثمانية عشر سنة ورثيت اولاده ولما اطلع على في زلة واحدة في حين وذلك مع جارية ترمي روحها للناس كلها والكلب والذئب معها واحرار بيته كانوا معي في امان وكنت انظر لبيته بالخير وادعي مصلحته واعبر على حرمته وبيته ما كان هذا يحتملني في نزلة⁽¹⁾ واحدة والانسان مركب من الخطايا والذنوب ومن هو الذئب في بنى ادم ما اخطى قط والى والله لو قدرت اليوم على هلاك روحه ما بقيت عليه الى ساعة فقال له الامير والله لقد جاءك الامر على ما تريد وتشتهى وقد انفتح لى باب تروح فيه روحه واخذ امواله وسبأ حرمته وشتمك به فقال له ذلك الغلام المردى للجاهل يا مولانا اجل ما تريد واسعى على هلاكه وانا امتثل امرك فيه فجلس الامير وكتب كتابا على لسان الوزير الى اكابر الافرنج وسماهم باسمائهم ورتب لهم اميرا وامورا كثيرة يعتمدوا عليها في هلاك الاسلام وعرفهم في الكتاب كل المشورات الذى اتفقوا عليها المسلمين⁽²⁾ وعرفهم الدلائل والعلايم الذى جرت من الخليفة والامراء وجميع ما هم عليه من المومرة والاسرار وجعل هواء الكتاب من عند الوزير قد كتبه ينصح به الافرنج وكتب فيه بينه وبينهم رموز ولغز اعنى متقدمة من قبل اليوم ولوقته ختم الامير الكتاب وظن انه قد بلغ قصده في النصراني وسلم الكتاب للغلام وعرفه السر بمكر واتحدز في الطريق كانك جاسوس فان يسألوك⁽³⁾ عرفهم بالكتاب ان الوزير قد كتبه واذا قدموك قدام الخليفة عرفه ايضا ان الوزير كتب هذا الكتاب وارسله معي يوصله الى اكابر الافرنج وكل الناس تعلم انك كنت غلامه وما يشكوا في حديثك⁽⁴⁾ ويخطر ببالك ما لك ذنب لانك عبدا مأمورا ومن كل وجه ما عليك لوم واحدا ما يعرف انك خدمت عندى لان لك ايام قليل وانت معروف انك غلام الوزير من عشرين سنة وان الغلام العديم العقل زين له الشيطان وجه الجبال وتجرد وشد وسطه واخذ الكتاب من الامير وتوجه الى جهة ضمياط⁽⁵⁾ وبرز عن الطريق وتباعد عن الدرب حتى ينظروا⁽⁶⁾ عليه ويمسكوا ولما اجتاز بالقرب من الاجناد توائبوا للوقت عليه (fol. 68) ومسكوه وفتشوه فوجدوا معه الكتاب مختوم وانهم اتقوا وشدوا كتافه وما درى بروحه الا وهو قدام الخليفة وان الاجناد سلموا الكتاب للخليفة المختوم فقصة وقراه فتغيرت احواله وتمرمر وصار ينضرب مثل السمكة في المقلاة⁽⁷⁾ ووقف له عرق

(1) Ms. نزلة.

(2) Sic pour المسلمون.

(3) Ms. مسلك.

(4) Ms. جدتيك.

(5) Sic pour دمياط.

(6) Ms. بينكروا.

(7) Ms. المقلاة.

بين عينيه يسما عرق الغضب ولم يملك من نفسه لا كثير ولا قليل وكانوا يرونه كما ينهم الاسد فخافت كل الامراء وما فيهم من يدري ايش للخبر وتوهوا في نفوسهم وان للخليفة رفع نظره للغلام وقال له ويلك يا غلام من انت فقال يا مولانا غلام الوزير كاتب السر فالتفت الى الامراء وقال لهم تعرفوا هذا الغلام قالوا نعم يا مولانا هذا غلام الوزير فقال للخليفة للغلام من اعطاك هذا الكتاب فقال يا مولانا مخدومي الوزير اعطاه لي وقال لي اوصل هذا لدمياط وسلّمه للبواب وتعال فاما ان اكون اسير في الليل فغلب عليّ النوم فمّت الى صحا⁽¹⁾ نهار فسرت في غير الطريق كما امرني مسكوني هولاي وجرى سهم القضاء بما فيه فلا حول ولا قوّة الا بالله العلي العظيم فقال للخليفة يا ابني من طريق ان ما لك ذنب والذنب لمولك وانه لوقتته امر باحضار الوزير الى قدامه فحضر ولم يعلم ما كتب في المغيب فلما وقف قدام للخليفة قال له ويلك يا ملعون يا نجس ايش كنت تريد تكون في دولة الافرنج وصلا احدًا⁽²⁾ لما وصلت انت في الجاه في ايامي انت للخليفة انت هو صاحب البلاد لعن الله لمن يلبس النصراني ثوب الغرّ ولوقتته امر للخليفة وسيّر بريديا⁽³⁾ بالحوطة على كل امواله فرتبوا خشبته خارج عن الخيم وكتفوه وجعلوه تحت الخشبة وان واحد من اكابر الامراء كان بحبّه محبة عظيمة قام ووقف قدام للخليفة وكشف راسه وخدم وقال يا مولانا هذا النصراني من قياس العقل ان قد عمل عليه تمهل قليل واكشف وفتش بيان لمولانا حديثي وايش هو هذا الملعون ان شنق شنقت كلبا⁽⁴⁾ وقبل هذا وبعده هذا عنده اموال تسد القضا وعين الشمس وهذا العساكر يحتاج في هذه الوقت النفقة ومتى شنق هذا النصراني ذهبت امواله تحت بعض الخرصاء وما يكون لبيت المال فائدة اذا شنق هذا النصراني والا وجه اخر ان دفاتر حساب الدبار المصرية عنده وهو يعرف⁽⁵⁾ حزب اخراج عن ظاهر (fol. 6g) قلبه والله ان شنقته مضرة على الاسلام من كل وجه والمشورة عندي ان مولانا للخليفة ياخذ كل امواله وجميع ما يكون له من الذهب والفضة ويشنقه مثل الكلب يروح الى سقرة الله ولعنته قال وان للخليفة اهتدى ما عنده وسكن غضبه وقّر قرارة واستصوب راي الامير وامر ان يسلموا النصراني للامير بجنيه قبل شنقه فخرج الامر ان يسلموا النصراني للامير فقدموه قدامه وانه لوقتته قام مسرعًا ولكه في فمه ارمى بعض اسنانه وصبق في وجهه واتف لحيته وسبّه وشتمه وقال له اجل الاموال يا كلب يا ملعون اقسم بالله وحياسة راس مولانا

(1) Ms. صحا.

(2) Ms. وصل احدًا.

(3) Passage douteux.

(4) Ms. كلب.

(5) Ms. يعرفها. La phrase n'est compréhensible qu'en retranchant ce pronom affixe.

للخليفة متى لم تحمل الى ثلاثة ايام مائة الف درهم نقوى بها العسكر وقوم الاسلام الجاهدين
والاعذبتك بعداب لم يكن مثله واطعك من لحمك ولا اشنقك لن شنقك ساعة وتموت تستريح
واما اميتك كل يوم الف مودة يا محامريا مستحق كل ردى لعنة الله عليك ولعنت للاهين⁽¹⁾
الذين ينظرون الا انت وجه نحس على كل النصرارى واذا فرغ وجهنا من هولاء الكلاب اريتك⁽²⁾
ايش اعجل في كل النصرارى وكل هذا كان الامير يعمله صورة قدام الناس حتى يتصل للخبر للخليفة
وبعد ذلك رسم على النصرانى عشرة من اشد الاجناد والرمه الى ان يحمل مائة الف درهم الى
ثلاثة ايام ولما خلى المكان ودخل للخليفة يستريح وكل الامراء في خيمهم في وقت شدة الحر طلب
الامير النصرانى في الخفية وقال له ويلك عرفنى ايش الخبر⁽³⁾ وما هو هذا الامر النجس ويين لي
العلّة فأتى رايت غلامك في خدمة ذلك الامير الذى تكلم فيك قدام للخليفة وجرى عليه ما جرى
وهو في قلبه منك البغض⁽⁴⁾ والقهر وبغته هو الذى عمل عليك وكتب هذا الكتاب ورتبه وسلمه
لغلامك وعلمه بجميع ما يصنع فتنهد النصرانى من صميم قدارة حتى قال للامير⁽⁵⁾ روح النصرانى تفارقه
وبعد ذلك عرفه بما جرى على الغلام منه وكيف طرده من بيته لانه افسد بعض جواريه⁽⁶⁾ وعرفه
كيف راح من الكياد وخدم عند ذلك الامير وللوقت عرف الباطن والظاهر وتحقق بالامر المفعول
وانفتح له باب عظيم في خلاص هذا النصرانى من هذه الشدة وانه سلمه للاجناد واوصاهم
بالاحترار عليه بعد ان اوصاه ان يحمل جلا جيّدا حتى يسكن غضب للخليفة فلم ينسلخ ذلك اليوم
حتى حمل عشرة الاف درهم فقال له الامير هذا حمل⁽⁷⁾ حقيرويلك اشترى روحك يا ملعون بعد
عينك لا طلعت الشمس وان عشت لك (fol. 70) كثير الرزق وفتوح اشترى روحك وقوى عسكر
الاسلام في هذا الوقت والجملة انه الى ثلاثة ايام حمل خمسين الف درهم فاخضرها قدام للخليفة
جميعها فقال للامير انفق في العسكر وقويه والنصرانى لا تبقية بل اسلب نجته وبعد ذلك اشنقه
وانه خرج من قدام للخليفة وانفق على الامراء واعطى لذلك الامير الحاسد الذى عمل هذه العملة
مع النصرانى خمسة الاف درهم وصحك في وجهه ومكر به وقال له في اذنه ان هذا المال من الله ومنك
يا قيم الامراء فصحك ووقع له بلسانه وقال يا مولانا ان ما احب اليك النصرانى والا انا فقال له اعلم
ان شعرة في مسلم احب الي من كل ملوك النصرانى ومن هو هذا الكلب حتى يكون عندى اخير

— الامير Ms. (5) — . البغض Ms. (4) — . الخبر Ms. (3) — . اورتيك Ms. (2) — . للعين Sic pour (1) — .
جمل Ms. (7) — . جواريه Ms. (6)

منك وان للحاسد امن له وحدّته في اذنه وعرفته جميع ما جرى وكيف رتب الكتاب بامير ودلائل وعلايم يعرفها للخليفة وفي نهاية كلامه قال له انظر ما يجري على الاسلام من النصارى منها قدرت عليه من التجسس اعجل مع النصارى وما عليك من الله خطيه بينهم لانهم اعداءنا في الدين وقوم بغضا في الاسلام فقال له الامير لا توصيني والله الا ابغض الناس في النصارى واذا تفرغ وجهنا سوف اعرفك ايش اعجل في النصارى وانما هو وقته لاجل البيكار والمهم الذى نحن فيه وان الامير تحقّق الخبر وكتمه عن المولى للخليفة كيلا يحصل له جرح على الامير ويفسد قلوب الامراء بسببه ويتفرّق شمل الاسلام ويبلغ العدو المنا والظفر وكان ذلك الامير عاقل رائس محبّ في النصارى ولا كان يقصد اذية احد من الناس لا مسلم ولا نصراني ولا يهودى وقلبه كان انيلا⁽¹⁾ حقدا على ذلك الامير للحاسد للنصراني الذى عمل به هذه العجلة الرديّة ليهلكه بها وان هذا الامير خايف من الله اخفى ما في نفسه لم يظهر النصراني على ما سمع من ذلك للحاسد لكنه كان مجتهد في ان النصراني يحمل المال لانه يعلم ان ماله يرجع اليه بزيادة اذ اظهر للحق وذهب الباطل فلا برح هذا الامير يعسفه ويهدره كثير ويتواعد الى ان جعل مائة الف درهم من الفضة والذهب ونفقها كلها على العساكر بامر للخليفة وبعد هذا حبسه مقيد مغلغل وجاء الى عند الخليفة وقال له يا مولانا جاء جملة ما حمله النصراني مائة الف درهم وكانت (fol. 71) ضايقة⁽²⁾ لوسق النصراني وعلى الضمان انني اجمل منه اكثر من هذا ومن المصلحة ان تفكر في هلاك العدو او تخلو هذا الكلب في الحبس حتى نصفوه⁽³⁾ من ماله ونشقه مثل احقر كلب وانهم رتبوا العساكر ورجفوا بهمة عالية الى ابواب دميياط⁽⁴⁾ فاقاموا في محاصرتها بسبعين يوم فكانوا الاسلام كل يوم تجيهم نجدة من العرب والترك والعوام والحرافيش فلما اشرفوا على اخذ المدينة بادرة الافرنج وطلبوا الشواني وقرعوا المدينة بعد ان هلك منهم عالم كثير واهلكوا من الاسلام امم لا تعد ولا تحصى وانما الكثرة تغلب الشجاعة كثيرة عليهم عساكر الاسلام ومن لا يخاف من الموت وبعد هذا فتكوا ابواب دميياط وعبروا اليها فلم وجدوا من الافرنج من يخبر بخبر فطلبوا اهلها وطمنوهم ورفعوا عنهم الظلمات ورتبوا امرا تنظر البحر وعساكرا كثيرة تركوها⁽⁵⁾ مركزة بين البرجين وانقنوا⁽⁶⁾ شغلهم خشبة من الافرنج ولما تولّوا على الرجعة افكر للخليفة وزيرة ورسم بشنقه فحضر الامير وسلم اليه

(1) Ms. استلا.

(2) Ms. ضايعة.

(3) Ms. نصفيه.

(4) Sic pour دميياط.

(5) Il manque ici.

(6) Ms. انقنوا.

فتوة⁽¹⁾ وهي اعنى ورقة مكتوبة يستغثيه فيها في امر النصراني وهو يقول هكذا ماذا يقول مولانا للخليفة اعزه الله ونصرة على اعدائه وبلغه مناه في رجل ذمي قد عمل عليه انسان مسلم وظلمه وسعى في هلاكه وهلاك كل جنسه وطايفته واتقن حيلته ومكره ودقايق فكرته في تلافى اموال الذمي وسبى حريمه ونهبه والمسلم المذكور يظن ان جميع ما يجعله مع النصراني الذمي من المكروه له فيه أجر ومثوبة لانه عدوه في الدين وذلك الذمي يرى من جميع ما نسب اليه وعرضه نقى نظيف⁽²⁾ ابيض مثل الشمس عرفنا يا خليفة الله في ارضه هل يجوز للمسلم ان يتسبب في هلاك الذمي من غير ذنب افتينا في هذه رحمة الله عليك وعلى ابائك⁽³⁾ واجدادك الطاهرين الى يوم الدين امين امين ، قال فلما قرى⁽⁴⁾ للخليفة الفتوة كتب على ظهرها لا يجوز للمسلم ان يتعدا على الذمي وان تعدا عليه بغير حق ينتقم الله تعالى من المسلم لان الذمة النصرانية واليهود تحت ذمام الاسلام وفي حتمهم لانهم يزنون للجزية فمن تعدا على احد الذميمة اخذنا حق الله منه والسلام فلما صار خطا يد للخليفة بيد الامير فرح به وشاله في خزيطته وخرج على انه يشنق النصراني لان للخليفة رسم بشنقه كما تقدم القول ولا امكن الامير ان يحامي للنصراني ينسب في هذا الغرض وانه لوقتته (fol. 72) طلب النصراني وطلب الغلام وقال للنصراني هذا غلامك يا كلب قال نعم يا مولاي واتما اقسام بالله العظيم الذي لا تخفا عنه خافية ان هذا الغلام نغيته من منزلي من مدة ايام لانه نجروزي في احد جوارى فقال الامير للغلام كانه ما يعرف للخبز ولا عنده حسوس من الامر ويلك لما خرجت من عند هذا النصراني فعند مين⁽⁵⁾ رحمت وخدمت فقال الغلام يا مولانا رحمت للامير سهم الدولة فامر الامير ان يرموا الغلام ففاه ويضربوا له اربعة اوتاد في الارض ويسحبوه بيديه ورجليه وامر ان يحضر اليه قطعة قار اعنى زفت ونار وامر الامير ان يكشف بطن الغلام ويصب عليها القار والنار ففعلوا كما امرهم وصار يصرخ ويستغيت⁽⁶⁾ فلا يغاث فقال له الامير تريد تخلص من هذا العذاب قر بالعصج وعرفني من اعطاك الكتاب فعرفه القضيّة من اولها الى اخرها وانه لوقتته عبر به الى عند للخليفة وكان النصراني متوكل على الله وعلى القديسة بربرة وكان اسم القديسة بربرة في فة الليل والنهار والصبح والمساء ان تنظر اليه وتخلصه من شدته وكان يصرخ من صميم فؤاده يا اله القديسة بربرة بصلواتها وسفك

(1) Sic pour فتوى.

(2) Ms. نظيف.

(3) Ms. اجواك.

(4) Sic pour قرأ.

(5) Sic pour من.

(6) Ms. يستغوث pour يستغيت.

دمها وظهرها وبتولبتها خلصني ولما عبر الامير بالغلام الى عند الخليفة اخذ اقراره بالعجج قدام الخليفة وعرفه كل الخبر فقال للخليفة لذلك الامير اخرج واطلب الفاعل الصانع واستقره بالعجج واحضره الى فقال الامير يا مولانا لما اخذنا الذهب من النصراني ونفقت في الامراء اعطيت الامير عريم النصراني خمسة الاف درهم وقلت له هذا الذهب انت السبب في تحصيله ونزلته من كلام لكلام حتى قرلي بجميع ما كان وانا انزله قليل قليل وهو واقع على راسه وحسده الذي يغلو⁽¹⁾ في فوادة من هذا النصراني هو الذي يقتله وان للخليفة قال للامير ولماذا ما قلت لي هذا الخبر في وقته فقال يا مولانا كنا في بيكار وخشيت من فتنة من الامراء وكان العدو يحصل له الغنيمة والغرض منا وينفسد نظام الاسلام فما كان اوفى من السكات ورميت للجرارة⁽²⁾ في راس النصراني لان به ولا بالامراء اكابر الاسلام فقال للخليفة لذلك الامير فما الشورة⁽³⁾ عندك في هذه النوبة المشكلة فقال له الامير يا مولانا يد الله على قلب الملك فما خطه⁽⁴⁾ الله في قلبك فان العدو قد انهزم من قدامك وما بقي لمولانا للخليفة ان شا الله تعالى عدو فاجل الواجب وامسك النصراني قريب منك اكثر ما كان فان (fol. 73) الله قد انقى عرضه وازال تهمة وبان للحق من الباطل وان للخليفة امر من وقته وساعته بشنق الغلام وللوقت شنقوه وامر هكذا ان كل شئ يعمل بالنصراني يعمل بذلك الامير للحاسد من حيث انه لا يشنق ولا يسفك⁽⁵⁾ له دم لانه لم يخامر على الاسلام واما حجارة كان على النصراني فلم توجب للحكام عليه موت الا القيد والحبس تحت الارض ودفعوا كل امواله الى خزانة الاسلام واعطوا فيه اوقافا نسيت⁽⁶⁾ لزوجته واولاده وكتبوا حبسه مخلد لم يكن له خلاص الى الموت واما من النصراني فان للخليفة رسم ان يعاد اليه امواله فاشاد ذلك الامير الحب⁽⁷⁾ ان لا يلتبس منه درهم ويعرفه بما يعتمد عليها رسم للخليفة باعادة⁽⁸⁾ امواله اليه دخل الى عنده وقبل الارض وقال يا مولانا من مالك قدمت لك وكلها انا فيه من نعمتك وحصل لي من جاهك وعندى كثير من انعامك وصدقاتك ما لا استحقته فهش له للخليفة وقال له اجعلنا في جل فحضع له وقبل الارض بين يديه وخدمه وان للخليفة قال له تمنى على شهوة اقضيها او حاجة تكون لك منى فقال له يا مولانا اشتهيت على صدقاتك شهوة ما هي كثير⁽⁹⁾ قال له قل⁽¹⁰⁾ ما

(1) Ms. يغلا.

(2) Ms. للجرارة.

(3) Sic pour الشور.

(4) Mots douteux.

(5) Ms. يشفك.

(6) Ms. نصبت.

(7) Ms. الحب.

(8) Ms. باعادة.

(9) Sic pour كثيرة.

(10) Ms. قل.

أردت وثنى ما تشتهى فانه لك منى بلا مانع فقال له يا مولاي قصدى ابني كنيسة عند بيتي فان عايلتي تبعد عليهم الكنيسة وكلها توجهوا للكنيسة يشوشوا عليهم صغار المسلمين ويشتموهم فقال له الخليفة هذا أهين انزل خذ خط للحكام وتعال⁽¹⁾ الى عندي لان خطهم يدفع شرهم وشر العوام والمتعتين ويبقى خطهم مثل السيف القاطع وبعد هذا انا اكتب خطى فوق خط للحكام وكل من تعرض لك قطعت رقبتك فنزل من عنده فرحان مسرور ولم يروح الى منزله بل توجه الى الحكام وعطاه شئ من الرشوة واخذ خطه وعمل مع كل للحكام فيهم من صنعه⁽²⁾ وفيهم اصناف⁽³⁾ كثير وكتب ولم يامنه شئ وفيهم من اخذ منه وكتب له وبالجملة انه اخذ خطوط الكل من كبيرهم الى صغيرهم وطلع الى عند الخليفة وازاه خطوطهم ولوقته كتب له ان يبني كنيسة واحدة ورسم له بدراهم من بيت المال فصقع وقال يا مولانا علي نذر ان تكون الكنيسة مبنية من مالى فقال له اهتم من اعدا⁽⁴⁾ ومن تعرض لك عرفنى به حتى استوفى عمرة واقطع حياته وانه سير الى ثغر دمياط والى الاسكندرية يطلب اخشاب جاء (fol. 74) اليه من اخشاب مائتى عشرة كنايس شئ بغضته وشئ خدمة له وانه من طمعه شرع في بناء كنيستين واحدة على اسم سرجيوس والاخرة على اسم القديسة بربارة وكل بنيانهم باذن الله تعالى في هديه⁽⁵⁾ وسلامه ولاجر احد من الناس يتكلم كلمة واحدة ولما مكث الكنيستين جو على احسن هندام واكمل نظام مثل الحمامة البيضاء وكرزهم الاب البطريك وكان فرحا عظيما في مصر بين الاقباط وبعد حين سمع للخليفة ان الوزير قد بنى⁽⁶⁾ كنيستين طلب اليه وزجرة ونهرة وامره ان يهدد احداهم الذى يختاره منهم يهدمه والذى يستكسها يتركها واقفة مبنية فنزل وعليه الترسيم وهو مهان مقهور وجاء الى كنيسة سرجيوس فبقى متعجب من حسن بنائها⁽⁷⁾ وتربعا وتكريسها⁽⁸⁾ واتسعاها فيقول هذه ليس اهدمها فيتركها ويحى الى كنيسة بربارة فينظر اليها ويتنهد ويتكسر فينوه من شدة الغم فيقول هذه ما اهدمها اروح اهدم ذيك الكنيسة فياخذوه⁽⁹⁾ الشرط ويروحوا الى الكنيسة الاخرى وخلفه من اكل للخبز وشرب الماء من المسلمين ومعهم الفؤس والمساج برسم الهد فلما وصل الى كنيسة سرجيوس نظر اليها وهو متكسر ولم ياكل ولم يشرب وبالجملة انه صار لا يبرح

(1) Ms. تعال.

(2) Ms. انصفه.

(3) Ms. انصاف.

(4) Ms. اعدا.

(5) Ms. هدوا.

(6) Ms. بنى.

(7) Ms. بناها.

(8) Ms. تكريسها.

(9) Ms. فاحذوه.

من هذه الى هذه ولا يهون عليه ان يفتح فمه ويقول اهدموا هذه وكان للخليفة قد امر الشرط ان يمهلوا عليه حتى يختار له واحدة منهم يهدها فلذلك صبروا عليه وانه من العجز والحسرة والغم العظيم والصوم والعطش والمشى بين الكنيستين وشماتة الاعداء انفطرت مرارته وحسر بالموت فاستند مع حايط الكنيستين وحلّق (1) عيناه وثلج (2) ابصاره و اشار للناس ان يستقوه قليل ماء فجابوا له الماء [و] وجدوه قد مات ونجّ الله نفسه وللوقت طلوعوا الشرط الى عند الخليفة واعلموه بموت الوزير فعز عليه موته وعظم عنده وحطّ المنديل على وجهه وبكى بكاء مرّاً ونحى عليه من شدة حرته عليه وقال من الان صارت اموري الى النقص وللخسارة (3) فقامت العظماء والامراء وقبّلوا الارض قدامه وقالوا الله الله في امرك حسبك (4) الله في الناس كثير مثله واوفى (5) منه وقد ماتت الانبياء مع كمال درجتهم والملوك وللغلاء الاكاسرة والقياصرة ولم تفتقر الدنيا قط لهم فسخ الله في اجل مولانا خليفة الله في ارضه انت الذى يعدمك الوقت وتضطرب لك الوجود لاجل انك من السلالة الحمديّة وانتم (6) نفر قليل مثلك من يفتقر لك الوقت اطال (fol. 75) الله بقاءك وهناك بما اعطاك بترية ابائك واجدادك المكرمين زيل ما عندك واشرح نفسك وابسط املك فقال لهم والله يا امراء هذا كان نعم الوزير ونعم المشير وكنت ابدا مستبارك برأيه ومشورته ومهما سأنته عنه اجابني من ظاهر قلبه من عبر دفتر فقالوا يا مولانا صحح الذى ترسم به ونحن نعرف هذا كله منه واوفا لانه كادرب الشغل وحفظه وان للخليفة امر لوقتته بتخليفة الكنيسة الاخرى وكرامه لاهل الوزير وزوجته وعائلته فتركوا الكنيستين عامرين وهم الى يوم الناس هذا ولم يكن في مصر احسن عارة منهم وكان الوزير لما توفى بين الكنيستين حضرة اهله وزوجته وبناته وولده وعلموا عليه مناحة عظيمة حتى ابكوا العخر الضم (7) وفي تلك الليلة لما دفنوه في كنيسة بربارة نزل من السماء نور ساطع (8) على قبره حتى ظنّوا المسلمون ان المدينة قد احترقت وكثر الغال والقيل بين الاسلام منهم من يقول انها صاعقة (9) نزلت من السماء تحرق كنيسة النصرارة وفيهم من قال انها هي صاعقة ولو كانت صاعقة احترقت الكنيسة والمدينة واما هو بوق (10) ساطع وفيهم من قال ان النصرارة عقلوا عن موضع فيه نار اشتعلت لعبت في جوانب الكنيسة وفي تلك الساعة ركب الى

(1) Ms. حلّق.

(2) Ms. تلج.

(3) Ms. الخسارة.

(4) Ms. حسبك.

(5) Ms. اوفى.

(6) Sic pour انت.

(7) Sic pour الدم.

(8) Ms. نوراً ساطع.

(9) Ms. صاعقة.

(10) Ms. بوقاً.

المدينة ورجالها والحرسية⁽¹⁾ والنفراء وشيوخ الحارات وقصدوا الناس بجوا⁽²⁾ اليها ودخلوا الى الكنيسة الجديدة فوجدوا نورا⁽³⁾ من عند الله مثل العود نورا ساطعا من فوق العلو⁽⁴⁾ الى القبر الذى للوزير ولما كان الصباح اعملوا للخليفة بما جرى فقال انا اول من يصدق بهذا لان كاتبى كان رجلا مباركا امير ظاهر اليد والعين والجسم ولم اتحقق فيه شئ من المكروه رحمة الله تعالى وفي وقته وساعته سير طلب ابنه وكان عمره دون البلوغ وان الطفل خدم وصنع وقيل الارض وعمل مثل ادب ابوه فهش اليه للخليفة وميز اليه فرآه صورة صحة ووجه حلو [واللسان فصيح ونطق بليغ فرح به وقال له يا ولدى ان كان ابوك مات فانا في اليوم ابوك فخدم الطفل ووقع الارض على وجهه بين يدي للخليفة فدفع له بديوان ابوه⁽⁵⁾ ورا كتابيه⁽⁶⁾ مستقيمة ضعيفة فطلب بعض المكتبين المعلمين وسلمه اليه وقال له انصح في تعليم هذا الطفل وانا اوفيك فتسله واجتهد في تعليمه وكان الطفل حادق تحريير فهم ذكى مستيقظ ولا (fol. 76) سجا قد طمع بمكان ابيه وفي دون السنة تعلم اصول الحساب والخط الجيد العربي عن اصل والنحو وكمله الله تعالى بكل فن مليح واستمر في شغل ابوه⁽⁷⁾ وصار يصدق صدقات كثيرة⁽⁸⁾ على قبر ابوه⁽⁹⁾ ويعمل للقديسة اعياد في كل سنة والى يوم الناس هذا تذكار القديسة بربارة ثلاثة دفع في السنة يعملوه الاتح تذكار لا ينقطع ابدا من بينهم وفي ليلة الرابع من كانون عيد القديسة بربارة يجتمع في هذه الكنيسة كل جنس الاقباط الساكنين بمصر والقاهرة حتى تروح⁽¹⁰⁾ المدينة من العالم واكثر المسلمين يحضروا بطريق الخرجة ويظهر من جسدها عجائب وغرائب بين الناس وبعض الناس بجوا في السر ويمرغوا وجوههم على جسدها الطاهر ويطلبوا بركة من زيت القنديل واكثرهم لهم فيها امانة عظيمة ويسموا بناتها على اسمها ولا يبالوا باحد ونصف نسوان ديار مصر اسمهم بربارة ولا ينكر احدا عليهم وصارت عادة بين الناس يسموا بناتهم بهذا الاسم بركاتها وصلواتها تكون مع من اهتم وكتب هذه السيرة المفتخرة⁽¹¹⁾ الرب يعوضه وباركة ويغفر له خطاياة وينج⁽¹²⁾ نفسه ونفوس اولاده بصلوات الست الطاهرة المكرمة القديسة بربارة امين امين امين

(1) Ms. الحرسية.

(2) Ms. وجوا.

(3) Ms. نور.

(4) Ms. العلو.

(5) Sic pour ابيه.

(6) Ms. اكتابيه.

(7) Sic pour ابيه.

(8) Ms. كثير.

(9) Sic pour ابيه.

(10) Ms. تروح.

(11) Ms. المفتخرة.

(12) Ms. ينج.

II. TRADUCTION.

Au nom du Père, du Fils et du Saint Esprit, le Dieu unique ⁽¹⁾. Nous commençons, avec l'aide de Dieu — qu'il soit exalté ! — et la beauté de son assistance, la copie du récit de la construction des deux églises vénérées de Barbâra et d'Aboû Sardja qui furent construites à Miṣr la bien-gardée et dont la fondation fut au temps de Sereteinos ⁽²⁾ par l'entremise du vizir copte, des fils de l'Apa Djîn Youmnâ, auprès du Khalife et d'une autorisation à lui (accordée) pour cela, où il est exposé tout ce qui lui arriva du fait de l'émir qui le calomniait et le tourmentait devant le Khalife. Avec le salut du Maître, Amen !

Dixit : Il arriva au temps d'un des Khalifes qui régnèrent sur Miṣr et ses districts qu'il y avait un homme copte d'entre les fils de l'Apa, lequel ⁽³⁾ était secrétaire particulier du Khalife et puissant auprès de lui, et qu'il parvint du rang des chrétiens ⁽⁴⁾ auprès de ce Khalife au point qu'il le désigna comme gouverneur (ou fondé de pouvoir) sur la contrée de Miṣr et tous ses districts et qu'il n'y eut aucune autorité ⁽⁵⁾ au-dessus de la sienne, si ce n'est celle du Khalife. Ce chrétien était compatissant, honnête, modeste, aimant ses semblables, prêt à satisfaire leurs besoins, servant le petit comme le grand, suivant avec les musulmans la conduite la plus honnête et la plus digne, détournant sa vue de leur harem ; il n'insultait ni n'injuriait personne, s'abstenait de toute querelle, ne prêtait secours contre personne d'entre les musulmans, s'apercevait des turpitudes mais ne diffamait personne, regardait avec son œil et cachait avec le pan de sa robe, et quiconque, d'entre les musulmans, gémissait dans l'oppression, il y mettait fin ; quiconque était victime d'une injustice, il l'en délivrait : bref, il n'avait d'autre occupation que la bienfaisance envers tous. Alors les musulmans l'aimèrent, les notables comme les gens du peuple, le

⁽¹⁾ Affirmation du dogme de la Trinité et réponse aux critiques musulmans qui prétendaient que les Chrétiens reconnaissaient trois divinités.

⁽²⁾ Sur ce nom, cf. la 4^e partie de notre étude.

⁽³⁾ Mot à mot : «et ce susdit».

⁽⁴⁾ *i. e.* du degré d'infériorité où se trouvaient réduits les Chrétiens.

⁽⁵⁾ Mot à mot : «et qu'il n'y eut pas, au-dessus de sa main, de main si ce n'est la main du Khalife».

bon comme le méchant, l'émir comme le plus humble ; ils témoignaient de leur gratitude envers lui auprès du Khalife et sa dignité montait, s'élevait, augmentait, et on n'entendait sur lui aucune parole envieuse. Un jour, au Vendredi saint magnifique et à la Pâque glorieuse, ses femmes et sa famille se dirigèrent vers certaines églises ; alors les gamins et les illettrés d'entre les musulmans les prirent comme but (de leurs railleries), se mirent à les insulter et à les lapider, étant sûrs qu'elles étaient des femmes de chrétiens, car la femme chrétienne se distingue de la musulmane ; ils ne cessèrent alors de les accompagner en les insultant, de les abreuver d'injures et de les couvrir de poussière jusqu'à ce qu'elles en fussent séparées par l'église. Or, lorsque la fête fut terminée et qu'elles retournèrent à leur demeure, la dame dit à son époux tout ce qui leur était arrivé en chemin, de la part des gamins et des illettrés d'entre les musulmans, et elle jura qu'elle ne continuerait pas à se rendre à l'église.

Son mari lui dit alors : « Calme-toi (adoucis ton cœur) ! Il faut que je me trouve avec le Khalife et que j'obtienne de lui un ordre au sujet de la construction d'une église auprès de ma maison. » Elle lui répondit seulement : « Il ne nous sera pas donné de bâtir une église du temps des musulmans. — Il nous sera donné, dit-il, ce que voudra Dieu, qu'il soit exalté ! » Sa femme lui dit alors : « Si Dieu a décidé que tu obtiennes l'ordre de construire une église, elle sera au nom de la Sainte, l'Élue, l'Intercesseur Barbâra, et son corps s'y trouvera. — Adoucis ton cœur, lui dit-il, dilate ta poitrine et rafraîchis ton œil ; il faut que je fasse tous mes efforts et que j'emploie tous mes biens et ma position à la construction d'une église. » Alors elle lui dit : « Dieu (qu'il soit exalté !) fortifiera ta parole, te conduira à ton but et échauffera(?) pour toi les cœurs. » A partir de ce jour-là, il continua à rendre service aux hommes beaucoup plus qu'auparavant, à les honorer, à satisfaire leurs besoins, et surtout les Kâdis, les juges et les gens riches, d'entre les musulmans, qui venaient après lui, les méchants et les sages, de sorte qu'il s'empara de leurs cœurs, au point que tous firent des vœux pour sa (longue) vie, que leurs âmes s'inclinèrent vers lui, qu'ils lui témoignèrent les plus grands honneurs et continuèrent à lui confier leurs besoins, tandis qu'il attendait un jour où serait une minute bénie et une heure heureuse de réussite, et il était médecin de l'âme (philosophe), connaissant toutes les sciences.

Un jour, il monta au service du Khalife et le vit heureux, souriant et de bonne humeur⁽¹⁾. Il le servit comme d'habitude et donna à la reine⁽²⁾ sa part de rapide service. Ce jour-là, Dieu (qu'il soit exalté!) le seconda dans toutes ses démarches devant le Khalife [qui se tourna]⁽³⁾ vers tous ceux qui étaient présents d'entre les émirs, les gens respectables, les gouverneurs et les chambellans et leur dit : « Par Dieu, ce chrétien est le moteur⁽⁴⁾ de ma dynastie et, sans lui, la royauté n'aurait aucune affaire en bon ordre. » Alors tous les assistants se mirent à parler suivant leurs opinions, car il y en avait, parmi eux, qui lui portaient envie et il y en avait qui l'aimaient; l'un d'eux dit : « Le monde ne peut être ajusté par un seul homme » ; un autre, dont le langage était conforme à l'idée du Khalife, fit des actions de grâce et témoigna hautement de son opinion. Il y en eut un parmi eux qui eut peur à cause du vizir et inspira au Khalife des soupçons contre lui, disant : « Ô, Maître⁽⁵⁾, ce Yâdjîn est un chrétien. » Mais le Khalife dit : « Je le veux, moi, qu'il soit chrétien, parce que le chrétien craint pour son honneur, redoute, pour lui, sa religion et ne cherche pas à se précipiter dans une action repoussante. — Ô, maître, dit l'envieux, ce que tu dis est vrai et il n'y a pas d'objection⁽⁶⁾ à ta parole; seulement, à toute inimitié, on espère une paix et une réconciliation sincère, excepté l'inimitié de l'opinion religieuse pour laquelle on n'espère pas de paix. Dieu fasse que ce chrétien ne puisse rien au préjudice des musulmans⁽⁷⁾ et qu'il les laisse tranquilles ! » Alors le Khalife se fâcha contre ce jaloux, dédaigna de se disputer avec lui⁽⁸⁾, s'emporta de fureur et nourrit une colère sourde contre cet homme; il ne lui laissa pas voir son courroux, mais il cacha ce qui était dans son âme, il fit paraître le sourire, la joie et la bonne humeur et, au même instant, se leva de son trône et fit signe aux émirs de se retirer. Alors ils s'en allèrent, ayant avec eux ce jaloux, qui s'était repenti de ses paroles. Les émirs se tournè-

(1) Mot à mot : « dilaté de poitrine, riant de dent et calme de vie ».

(2) Passage obscur. Nous ne pouvons traduire autrement; mais il est peu probable que le vizir ait été admis en présence de l'épouse du Khalife.

(3) Les mots entre crochets ont dû être omis par le copiste, probablement فتوجه للخليفة. La phrase est incompréhensible sans cette addition.

(4) Mot à mot : « le mouvement ».

(5) Mot à mot : « Ô notre maître ». Nous avons supprimé « notre » dans toute notre traduction.

(6) مَرَدّ de مَرَدّ « être rebelle », bien que le *masdar* soit مرود ou مرادة.

(7) Mot à mot : « de l'Islâm ». Dans tout le cours du récit, le mot Islâm est un collectif pour désigner les Musulmans.

(8) Mot à mot : « sa dispute de supériorité ».

rent vers lui et lui dirent : « Tout ton discours sur l'honneur de ce chrétien est l'indice de ta jalousie, mais ta méchanceté retombera sur ta tête. Sache que, parmi les qualités requises des serviteurs des rois⁽¹⁾, (les principales sont :) de les suivre dans leur affection, d'obéir à leurs ordres, de se tenir tranquille au moment de leur courroux, de prononcer peu de paroles dans leurs audiences, de leur répondre ce qui est conforme à leurs intentions, de s'abstenir d'attaquer quelqu'un en parole, en général, excepté une seule réponse, pas d'autre, et que cette réponse soit brève, satisfaisante et dite avec beaucoup de ménagement. Toi, aujourd'hui, tu as été à l'opposé de tout cela : parce que le Khalife a témoigné sa reconnaissance à ce chrétien, toi, tu l'as calomnié ; il l'a loué et toi, tu l'as injurié. » L'un d'eux dit : « Ne dis rien à celui qui aime sur celui qu'il aime, excepté ce qu'il aime, de peur que tu entendes ce que tu n'aimes pas. » Les émirs ne cessèrent pas de le rudoyer et de lui ronger le cœur par leurs paroles et leurs reproches jusqu'au moment où il s'en alla à sa maison, une maison somptueuse et bien bâtie⁽²⁾. Il informa alors sa femme de ce qui était arrivé ; elle fut d'accord avec lui et renchérit encore (sur ce qu'il disait), alors il lui conseilla ceci : « Tu te lèveras pour aller chez la femme du chrétien, tu entreras près d'elle, tu prendras avec toi un cadeau pour elle et tu lui apprendras toutes les paroles qui ont été dites à l'audience du Khalife. Dis-lui : il a commis une faute et il dit : Je demande pardon à Dieu ! » Alors elle s'en alla à la maison de la femme du chrétien (portant) avec elle un cadeau magnifique : c'était un vêtement précieux de sa garde-robe. Lorsqu'elle entra chez la femme du chrétien, (celle-ci) au même instant l'invita à entrer⁽³⁾, lui fit des honneurs et la salua⁽⁴⁾, la fit asseoir dans l'endroit⁽⁵⁾ le plus élevé de sa demeure et rendit hommage à son rang⁽⁶⁾, jusqu'aux limites de ce qu'il était réellement, parce qu'elle était une femme d'émir d'entre les meilleurs en tous points des enfants des hommes et d'entre les plus grands des musulmans. Lorsqu'elle se fut assise, elle causa agréablement, plaisanta beaucoup, commença à mettre à son aise la femme du chrétien et à la faire rire, lui raconta des histoires qui conviennent aux femmes, et s'empara de tout son cœur par la douceur de son langage, le ton

(1) Mot à mot : « de l'ensemble de l'éducation des troupes de serviteurs des rois ».

(2) Ou une maison à arcades عتود.

(3) En lui disant : مَرَحَبًا بِكَ.

(4) En lui disant : اِهْدَأْ وَسَهْدَأْ.

(5) قِي اَعْلَى. Peut-être : sur un siège élevé, i. e. à la place d'honneur.

(6) Mot à mot : « sa quantité ».

mielleux de sa parole et la beauté de sa conversation. Après tout ceci, la femme du chrétien lui dit : « Ô, Madame, tu as peut-être un besoin quelconque ou un service (à demander); par Dieu, tu as orné ma demeure et tu m'as fait honneur en portant (chez moi) tes pas précieux. » Alors elle lui dit : « Sache, ô vierge des chrétiens, que la langue est l'ennemie de l'homme; la langue a dit à la nuque⁽¹⁾ : Comment t'es-tu réveillée aujourd'hui? La nuque lui a répondu : Par Dieu, si j'avais pu t'échapper, je serais bien portante! Ô vierge des chrétiens, la langue est l'ennemie de la nuque et il n'y a de préjudice pour l'homme que par sa langue. » Alors la femme du chrétien lui dit : « Quel est le sens de cette histoire? Explique-moi l'origine de ceci, sa cause, son sens clair, » parce qu'elle n'avait aucune connaissance de ce qui était arrivé à l'émir et à son mari dans la Citadelle, devant le Khalife. Alors la femme de l'émir lui fit savoir tout ce qui était arrivé et chaque chose qui avait été dite à l'audience du Khalife et elle lui dit : « Il a commis une faute et il a péché⁽²⁾ par sa langue; il a parlé sur la religion de ton mari avec toute précipitation⁽³⁾ devant le Khalife, et moi je te prie de lui demander de ma part qu'il fasse cesser toute colère de l'esprit du Khalife et qu'il parle en faveur de l'émir, (en faisant valoir) toutes ses qualités, car il n'est que bonté⁽⁴⁾ et tous les autres hommes seront reconnaissants à ce chrétien; il cherchera à connaître la raison de mon entrée dans sa maison, prendra en considération l'origine insignifiante de (cette) calomnie⁽⁵⁾, ne conservera pas de haine contre l'émir et, après tout ceci, il ne s'éloignera pas des émirs, il sèmera le bien avec eux et le récoltera en faveurs. Maintenant, ce qu'il craint, c'est qu'il en résulte un changement de situation : ce Khalife l'estimait, l'honorait et l'aimait; un autre que lui viendra à sa place et le Khalife le détestera et le renverra. Toi, ô madame, garde-toi de ces conséquences et crains-les. Je désire que tu acceptes de ma part cette humble offrande⁽⁶⁾; elle ne convient qu'à toi pour ton bonheur et ton amitié⁽⁷⁾, parce que c'est un cadeau de peu de chose, insignifiant ». Elle lui fit donc sortir le

(1) Allusion au proverbe arabe اللسان عدو العنق «Souvent l'intempérance de langage coûte la vie».

(2) Mot à mot : «il a trébuché».

(3) Mot douteux.

(4) Mot à mot : «parce qu'il est tout bon».

(5) Mot à mot : «il reviendra à la calomnie de son origine».

(6) Mot à mot : «cette quantité misérable».

(7) Mot à mot : «sur le chemin du bonheur et de l'amitié».

vêtement, alors la femme chrétienne resta stupéfaite à sa vue; elle s'en réjouit, le lui prit et lui promit tout le bien (qu'elle désirait).

Tandis qu'elles étaient en conversation, le vizir, maître de la maison, était revenu de la Citadelle, de chez le Khalife, joyeux, gai, content de lui, heureux d'esprit et d'espérance et la cause de sa joie était que le Khalife l'avait fait venir et l'avait mandé après le départ des émirs et lui avait fait connaître tout ce qu'avait dit cet émir à son égard. Il lui avait ordonné en même temps de faire le dénombrement de tous les biens et de la fortune de l'émir, de ses jardins, ses bains, ses magasins et de tout son argent et ses possessions: il lui avait présenté son sceau et lui avait ordonné de mettre le séquestre sur ces biens, de vendre ce qu'il voudrait, d'en porter le prix au trésor public et d'inscrire ce qu'il ne voudrait pas vendre dans le bureau du trésor. Le Khalife avait fait venir après cela trois émirs et leur avait ordonné d'arrêter cet émir, de le jeter dans les fers, de l'enfermer et de le charger d'entraves. Les émirs étaient donc descendus rapidement, avaient fait irruption dans sa demeure, avaient mis la main sur le-dit émir, l'avaient enchaîné et jeté dans les fers, tandis que sa femme était dans la maison du chrétien, ignorant tout. Le vizir prit donc l'anneau⁽¹⁾ du Khalife et descendit de chez lui sans pouvoir prononcer une parole, effrayé de la colère du Khalife et préoccupé de mettre en œuvre⁽²⁾ toute sa ruse pour sauver l'émir à un autre moment (plus propice), car il avait vu le Khalife qui avait atteint la limite de la colère et de l'émotion, (au point que) s'il lui avait répondu, il lui aurait coupé le cou. Il se réjouit en tout cas de l'élévation de son rang auprès du Khalife et de ce qu'il le regardait comme supérieur aux plus grands émirs. Lorsque ce vizir descendit chez lui, trouvant la femme dudit émir dans sa maison, il interrogea sa femme au sujet de ce qui était arrivé; elle lui apprit alors que c'était la femme de l'émir, (lui raconta) tout ce qu'elle lui avait dit, depuis le commencement jusqu'à la fin, ce qu'elle craignait de l'issue de l'affaire, ce qu'elle lui avait adressé d'exhortations et ce qu'elle cherchait à éviter, et lui dit à la fin de son discours⁽³⁾: « Les

⁽¹⁾ *i. e.* le cachet خاتم. Ce mot désigne une bague que portent les Arabes, surmontée d'une plaque portant un cachet dont la trace leur tient lieu de signature. De là vient la double signification de ce mot.

⁽²⁾ Mot à mot : « qu'il tourne autour avec toute sa ruse ».

⁽³⁾ Le rôle joué ici par les femmes est une caractéristique, et non la moins intéressante, de la littérature arabe chrétienne.

émirs ne se jetteront pas les uns contre les autres⁽¹⁾, mais je crains qu'ils ne tombent d'accord contre toi, fais-donc tes efforts dans cette affaire⁽²⁾ ». Ensuite elle lui raconta l'histoire du vêtement et ne lui cacha rien, car elle était une femme bénie, bonne, douée de sentiments religieux, soigneuse dans son intérieur, habile dans ses affaires et dans celles de sa famille. Lorsque son mari entendit l'histoire du vêtement, il la repoussa, l'injuria et lui dit : « Comment as-tu accepté d'elle le vêtement sans mon conseil ! Rapporte-le lui sur l'heure et à l'instant. » Ensuite il vint auprès de la femme de l'émir, lui offrit ses services, lui témoigna beaucoup de respect, lui fit les plus grands honneurs et lui apprit ce qui était arrivé à l'émir, lui faisant croire que ce n'était pas à cause de lui, mais que le maître, le Khalife, l'avait puni pour des fautes nombreuses autres que celle-là. En terminant, il la tranquillisa et lui jura qu'il emploierait tous ses efforts à sa délivrance et chasserait de l'esprit du Khalife toute la haine qui venait de son fait. Il lui rendit le vêtement, lui présenta des excuses et lui dit : « J'aurais été satisfait si tu t'étais présentée à ma demeure un autre jour que celui-ci ; mais les jours sont nombreux, le bien que je ferai pour lui te paraîtra évident et tu ne seras affligée de cette affaire que peu de jours. Il sera délivré ; on lui rendra toutes ses possessions ; je ne le laisserai pas descendre de devant le Khalife sans avoir reçu une robe d'honneur et Dieu attristera les yeux des envieux et des haineux. Tranquillise donc ton esprit et dilate ta poitrine⁽³⁾, car il n'arrivera que du bien. » Elle se jeta alors à ses pieds en les embrassant. Il lui releva la tête, lui baisa les deux mains et lui renouvela les serments les plus solennels, disant qu'il s'appliquerait à sa délivrance et emploierait tout son zèle, en présence du Khalife, chaque fois qu'il serait question de l'émir⁽⁴⁾. Elle sortit de chez lui songeuse, l'œil en larme, le cœur attristé, (pleurant) sur la ruine de ses demeures et sur sa déchéance, après avoir joui d'une puissance inébranlable et d'une considération générale. Quant au vizir, il pensa en lui-même que les émirs ne supporteraient pas facilement ce qui était arrivé à celui-ci, et surtout par le fait d'un chrétien ; il craignit qu'ils ne l'épiassent avec méchanceté et qu'ils ne se coalisassent contre lui ; il vint donc

(1) Ou : « ne rejettent pas l'un d'entre-eux ».

(2) Sens douteux ; le texte de ce passage est assez obscur.

(3) *i. e.* réjouis-toi.

(4) Mot à mot : « dans chaque bon mot à l'égard de l'émir ».

aussitôt au temple de la Mou'allakāt (la Suspendue) — c'est la grande église catholique au Caire — intercéda auprès du corps de la Sainte Barbāra, oignit d'huile son visage sur ses cendres et lui demanda d'écarter de lui la méchanceté des émirs et de l'assister dans la délivrance de cet émir. Il fit le serment devant l'autel qu'il bâtirait une grande église à son nom, qu'il la ferait, de son argent, magnifique et spacieuse, et qu'il y transporterait son corps. Il donna immédiatement vingt dirhems au gardien, lui ordonnant d'acheter avec cet argent un grand cierge et de le suspendre devant le corps de la sainte jusqu'à ce qu'il fût consumé. Il se hâta ensuite de venir chez le plus grand des émirs, qui était leur conseiller, leur porte-parole et leur chef et lui demanda d'apaiser le cœur du Khalife à l'égard de cet émir. Alors il lui répondit : « Par Dieu, ô chrétien, certes tu es fils de la grandeur ; il y a en toi de la bienveillance, de la bonté, de la générosité et de la perfection, car tu rétribues le mal par le bien, au grand étonnement des hommes ⁽¹⁾. » Il s'humilia devant lui et dit : « Ô maître, (je suis) votre esclave et votre serviteur ; lorsque le Khalife s'est emporté (que Dieu — qu'il soit exalté ! — lui accorde la puissance !), lorsqu'il s'est irrité contre l'émir, il m'a prescrit son ordre et m'a donné son cachet en m'ordonnant (d'en faire usage) alors qu'il était en colère, au plus fort de son agitation, de son emportement et de sa violence ; si je lui avais répondu à cette heure défavorable, il m'aurait coupé le cou. » L'émir lui dit alors : « Ô chrétien, garde-toi de l'emportement du Khalife et, si Dieu le veut, exécute demain son ordre, veille sur tous les biens de l'émir et ne néglige rien dans cette affaire, tu serais perdu toi et ta fortune, ta famille tomberait en captivité et toute ta vie (ton organisation) serait brisée, et moi, ô chrétien, je te donne de bons conseils. — Ô maître, lui répondit-il, il n'y a pas de zèle à apporter à son affaire ni de médecin à son infortune. — Fais ce qui est prescrit, lui dit alors l'émir, et deux jours après nous travaillerons à la délivrance de cet homme ; moi, je me concerterai avec tous les émirs ; on causera de son aventure, nous le sauverons et il n'arrivera que le bien et le salut. Va, ô chrétien, et tranquillise ton cœur ! » Le lendemain matin, le chrétien mit les scellés sur tous ses biens, ses possessions et ses meubles, ne lui fit rien vendre pour un seul dirhem, ne lui perdit pas la moindre parcelle de son argent et se mit à attendre l'ordre (du Khalife) et un jour plus

⁽¹⁾ Passage obscur.

favorable. Il n'avait d'autre souci, chaque jour, que de demander à la Sainte, la Chaste Barbâra, qu'elle apaisât ce mauvais augure et qu'elle le dirigeât bien ⁽¹⁾. Il resta attaché constamment aux portes des émirs, s'humiliant à eux jusqu'à ce qu'ils eussent calmé le cœur du Khalife. Après ceci, le Khalife fit venir le chrétien, le vizir, et lui dit : « Qu'as-tu fait de ce malfaiteur, ce misérable, ce chien, cet ivrogne ? — Ô maître, lui dit-il, tous ses biens et ses possessions sont sous scellés. » A ce moment, tous les émirs se levèrent, découvrirent leurs têtes, s'inclinèrent et interrogèrent le Khalife à son sujet. Lorsque le Khalife vit que tous les émirs étaient d'un avis unanime et qu'ils se pressaient en nombre pour l'interroger, il s'appliqua à les satisfaire bien qu'il fût nécessaire d'appliquer le code de la royauté ⁽²⁾, et dit : « Couvrez vos têtes et asseyez-vous. » Alors ils se couvrirent et s'assirent et le Khalife ordonna aussitôt de faire venir le-dit émir de son cachot. Il parut alors, dans une humilité et une faiblesse extrêmes, la nuque chargée de chaînes, les pieds liés, garrotté, se voyant lui-même dans l'abaissement le plus misérable. Lorsqu'ils l'eurent arrêté en cet état devant le Khalife, celui-ci lui dit : « Malheur à toi, ô chien ! vois ton état ! cette déchéance est plus digne de toi, ô ignoble ! ô entremetteur ! Qui es-tu pour oser engager une discussion avec moi, répondre à ma bouche et t'opposer à ma parole ; tandis que je fais des actions de grâce, toi, tu blâmes ! » Alors il dit : « Ô maître ! Pardon ! Dieu vous a pardonné et moi je me suis trompé et ma langue a péché, pardonnez-moi donc, pardonnez cette faute car je crie : Je demande pardon à Dieu ! Je demande pardon à Dieu ! » La colère du Khalife s'apaisa, parce qu'il était prompt à revenir à lui, doux, excellent, distingué, sachant dissimuler et gouverner et c'est à cause de ces qualités que son règne s'était prolongé. Il ordonna d'ôter le carcan de sa nuque et l'anneau de ses pieds et aussitôt les cœurs des émirs furent apaisés ; il ôta le séquestre de ses habitations et de tous ses biens, mais lui dit : « Reste dans ta maison et ne fais pas voir ton visage. » Il descendit donc de chez le Khalife jusqu'à sa demeure et n'osa plus sortir par la porte. Les émirs venaient jusque chez lui, l'interrogeaient et le rassuraient, lui disant : « Le bonheur viendra peu à peu ». Mais il leur dit : « Ô musulmans, tout ceci est arrivé par la faute du chrétien ⁽³⁾. Par

⁽¹⁾ *i. e.* qu'elle réparât le mal et donnât une heureuse issue à cette affaire. — ⁽²⁾ Ou : « il lui fut nécessaire (de ménager) les confidents de la royauté ». — ⁽³⁾ Mot à mot : « sous la tête du chrétien ».

Dieu, certes, ceci est une grande duperie et un malheur immense.» Alors ils lui dirent tous : «Nécessairement, quand le maître de l'autorité a rendu une sentence, les gens l'ont exécutée, bien que le chrétien soit un homme zélé, un médiateur de bien; mais s'il ne s'était pas trouvé là, tu n'aurais pas été délivré, toi, car il nous a fait des visites réitérées, nous a suppliés et nous a obligés tous, au point que nous nous sommes découverts, nous sommes venus nous présenter à notre maître le Khalife et l'avons supplié à ton sujet jusqu'à ce que tu aies été délivré. Malgré tout cela, voici que tu parles du chrétien en l'invectivant; contiens ta langue et que ta bouche s'abstienne de parler de ce chrétien, de peur que tu ne sois pendu cette fois. Sache que si un musulman était investi du pouvoir à la place de ce chrétien, il ne nous en arriverait pas de bien : ce chrétien est meilleur pour nous, que les musulmans, parce qu'il se méprise lui-même, sachant qu'il est un *protégé*⁽¹⁾ méprisable et parce qu'il craint pour lui et pour sa religion. Par Dieu ! il n'y a personne parmi nous qui conçoive pour ce chrétien une pensée malpropre, tandis que toi, par suite de ta jalousie, tu fais tout cela; mais ta jalousie retombera sur toi.» Ils se mirent en colère contre lui, se levèrent, le laissèrent dans sa maison et jurèrent qu'ils ne continueraient plus à le fréquenter⁽²⁾. Tout cela était (le fruit de) la sollicitude de Dieu (qu'il soit exalté!) et de la Sainte Barbâra pour ce vizir chrétien béni; elle le délivra de la haine des émirs, de leur ruse et de leur méchanceté et ils tombèrent tous d'accord pour l'aimer, se rendirent chez lui, élevèrent son rang et se mirent aussi à lui témoigner de la reconnaissance.

Après ces événements, il arriva, à cette époque, que les Francs descendirent à Damiette en l'an 465 des années de l'Islam, sur ses lisières et ses districts, et que les musulmans⁽³⁾ se réunirent en un point fixé⁽⁴⁾ et se concentrèrent par troupes nombreuses, demandèrent du secours⁽⁵⁾, formèrent des armées et firent de nombreuses dépenses militaires. Le Khalife dont nous avons parlé se mit en route⁽⁶⁾, ayant avec lui une grande armée qui aurait éclipsé celles de

(1) ذمي. On appelait ainsi les chrétiens et les juifs qui étaient autorisés à pratiquer leur religion, à condition de payer la capitation, جزية, et se trouvaient ainsi sous la protection de l'Islam.

(2) Mot à mot : «à venir chez lui».

(3) Mot à mot : «l'Islam».

(4) Mot à mot : «firent halte».

(5) Mot à mot : «firent l'appel (à la guerre sainte)».

(6) Mot à mot : «monta à cheval».

Gog et Magog⁽¹⁾ et celle de Nemrod. Le Khalife ne cessa pas de marcher ayant l'armée, les équipages et les escadrons derrière lui, devant lui, à sa droite et à sa gauche, jusqu'à ce qu'il arriva à proximité de Damiette. Alors il ordonna d'annoncer le repos aux troupes. Ils dressèrent donc leurs tentes à cet endroit-là parce que c'était une vaste prairie où il y avait de l'eau et des pâturages et, au même moment, il disposa par ordre les fractions de l'armée, puis regarda les routes et leur dit : « Quel que soit l'individu que vous trouviez allant ou venant, prenez-le, fouillez-le et faites-le comparaître devant moi, car, moi, j'ai peur d'un espion. » Alors ils s'emparèrent de toutes les routes, les entourèrent et les relièrent avec les piétons et les corps de troupes et ils retenaient quiconque passait sur ces routes⁽²⁾, l'examinaient et, le soir du même jour, ils faisaient venir devant le Khalife tous les gens qu'ils avaient trouvés passant sur la route. Celui-ci les interrogeait sur leur situation, dévoilait au grand jour leurs affaires, procédait à une enquête minutieuse et, après cela, il les retenait tous en prison. En un mot, il défendit de pénétrer à Damiette par terre ni par mer et chaque bateau sur lequel ils mettaient la main, sur le fleuve, se dirigeant vers Damiette avec du froment ou des marchandises, ils le submergeaient et pendaient son capitaine et ses matelots. Ils restèrent ainsi en cet endroit pendant un mois tandis que les Francs étaient à l'intérieur de Damiette, que les portes étaient barricadées, les machines de guerre dressées sur les murs et qu'ils se tenaient sur leurs gardes, dans la ville, contre les musulmans. Il arriva par hasard que cet émir qui avait été emprisonné et dont la maison avait été confisquée à cause du vizir chrétien dont nous avons parlé précédemment, ayant été revêtu d'une robe d'honneur et équipé contre les Francs par le Khalife qui avait calmé son ressentiment, lorsqu'il apprit avec certitude que le Khalife avait rangé les corps de troupes pour cerner les chemins et les routes suivies, il trouva pour lui en cette circonstance une occasion de perdre le vizir chrétien et un expédient pour tromper sa circonspection et ruiner sa maison⁽³⁾. Il arriva, par le hasard le plus défavorable pour ce vizir chrétien dont la mention a précédé, qu'il avait eu un

⁽¹⁾ Hâdjôdj et Madjoûd (*sic* pour Mâdjôdj). C'est par simple analogie que les Arabes ont préfixé la syllabe «Hâ» au premier de ces deux mots.

⁽²⁾ Le texte dit : « tout ce qui passait sur eux », lecture qui n'est pas correcte.

⁽³⁾ Mot à mot : « pour couper sa circonspection et ruiner ses demeures ».

domestique chrétien contre lequel il s'était irrité, qu'il avait chassé de sa demeure après l'avoir frappé violemment⁽¹⁾, dépouillé de ses vêtements et mis à la porte de sa maison parce qu'il avait détourné une de ses servantes, s'étant trouvé seul avec celle-ci, malgré son ordre. Il avait renvoyé la servante de sa maison et chassé le domestique. Celui-ci était alors passé chez l'émir qui était l'ennemi du vizir et avait servi chez lui, s'occupant à tendre des pièges au vizir, jusqu'au moment où il pourrait lui faire du tort et l'abaisser, se réjouissant de le tromper⁽²⁾. L'émir l'accepta et lui donna l'emploi de palefrenier pour les chevaux parce qu'il était au courant de ce métier. Il le prit en sa compagnie dans le corps d'armée détaché aux Francs et tout le long du chemin il se mit à parler au domestique ignorant, dépourvu d'intelligence, de peu de calcul, de réflexion pernicieuse, et qui ne connaissait ni les ruses des hommes ni leurs subterfuges. L'émir commença donc à raconter au sujet du vizir toutes sortes d'abominations méprisables, tandis que ce page ne cessait pas de médire du vizir, et lui, il parlait à son point de vue⁽³⁾ pour chaque affaire malpropre, suivant son goût et sa haine, jusqu'à ce que les soldats arrivèrent à l'endroit où ils établissaient le camp, au moment où le Khalife avait disposé les hommes et les corps de troupes qui devaient garder les rues contre les espions, comme le récit en a précédé.

L'émir appela ce domestique en secret et lui dit : « M'aimes-tu ou aimes-tu le chrétien ? — Ô maître, répondit-il, par Dieu ! par Dieu ! rien ne m'est plus odieux aujourd'hui que la figure de ce chrétien. Par Dieu ! si je pouvais l'assommer, le calomnier et boire de son sang ! un chrétien comme lui ! car je lui ai été fidèle⁽⁴⁾ ; je l'ai servi pendant dix-huit ans, j'ai élevé ses enfants, et lorsqu'une fois il m'est arrivé (de commettre) une seule faute, et cela avec une jeune fille qui se donnait à tous les hommes et qui recevait le chien et le loup, tandis que les intérieurs de sa maison étaient en sécurité avec moi, que je veillais sur sa maison avec soin, que je recherchais son avantage et que je traversais son harem et sa maison sans que ceci m'ait poussé une seule fois au mal, bien que l'homme soit un véhicule de fautes et de péchés. Quel est celui des fils

⁽¹⁾ Le texte dit clairement : « après qu'il l'eût tué, de l'action de tuer de la mort », ce qui est évidemment une exagération.

⁽²⁾ Passage assez obscur.

⁽³⁾ Mot à mot : « dans son droit ».

⁽⁴⁾ Mot à mot : « je l'ai conseillé ».

d'Adam qui n'a jamais commis de faute? Mais maintenant, par Dieu, si je pouvais aujourd'hui le faire périr, je n'hésiterais pas un instant. » Alors l'émir lui dit : « Par Dieu ! Certes, l'occasion t'est venue comme tu veux et comme tu le désires; pour moi une porte s'est ouverte pour le perdre, m'emparer de ses biens, capturer son harem et, pour toi, de l'injurier. » Alors ce page insensé lui dit : « Ô maître, je ferai ce que tu veux et je travaillerai à sa perte; j'exécuterai, moi, ce que tu m'ordonneras à son sujet. » L'émir s'assit alors et écrivit une lettre, qui semblait émaner du vizir, aux grands d'entre les Francs, les nomma par leurs noms et fixa pour eux des signes conventionnels et des ordres nombreux sur lesquels ils pussent s'appuyer pour la perte de l'Islam; il leur fit connaître dans la lettre toutes les dispositions sur lesquelles étaient tombés d'accord les musulmans et leur apprit les mots d'ordre et les signes de ralliement⁽¹⁾ qui avaient émané du Khalife et des émirs et tout ce qu'ils avaient arrêté en fait de résolutions et de secrets et établit le point de départ⁽²⁾ de la lettre de chez le vizir, qui l'aurait écrite pour donner des avis aux Francs, qui aurait écrit dedans des signes d'intelligence entre lui et eux et l'aurait contournée, je veux dire l'aurait antidatée. Aussitôt l'émir cacheta la lettre et pensa qu'il avait atteint son but relativement au chrétien; il remit la lettre au page et lui fit connaître avec artifice le secret, [en lui disant⁽³⁾]: « Descends vite sur la route comme si tu étais un espion. Or, si l'on t'interroge, fais-leur connaître la lettre que le vizir a écrite et s'ils t'amènent devant le Khalife, fais-lui savoir aussi (ce qui suit): « Le vizir a écrit cette lettre et me l'a envoyée pour la faire parvenir aux grands des Francs »; tout le monde sait que tu as été son domestique et ils ne douteront pas de ton récit. Souviens-toi⁽⁴⁾ qu'il n'y a pas pour toi de crime (à faire cela), parce que tu es un serviteur à qui l'on a donné des ordres et, de quel côté que ce soit, il n'y a aucun reproche à te faire à toi seul. On ne sait pas que tu as servi chez moi parce que tu as peu de jours (à mon service), tandis que tu es connu comme étant le page du vizir depuis vingt ans. » Le page, dépourvu d'intelligence, se laissa embellir par le démon l'accomplissement de cet acte⁽⁵⁾; il se dévêtit, serra sa ceinture, prit la lettre de

⁽¹⁾ Mot à mot : « Les signes et les marques ».

⁽²⁾ Mot à mot : « la marche ».

⁽³⁾ Ces mots manquent dans le texte. Le copiste a dû passer une ligne.

⁽⁴⁾ Mot à mot : « il te viendra à l'esprit ».

⁽⁵⁾ Mot à mot : « le démon lui embellit la face de l'arène ».

l'émir et s'en alla du côté de Damiette. Il s'écarta de la route et s'éloigna du chemin afin qu'on l'aperçût et qu'on s'emparât de lui. Lorsqu'il passa près des soldats, ils l'assillèrent aussitôt, le prirent et le fouillèrent ; ils trouvèrent alors sur lui la lettre cachetée. Ils le lièrent solidement et serrèrent fortement ses liens et on ne sut rien de lui jusqu'à ce qu'il se trouva devant le Khalife ; les troupes remirent au Khalife la lettre cachetée ; il la coupa et la lut. Alors sa physionomie fut bouleversée, il trembla de colère, se mit à s'agiter comme le poisson dans la poêle et entre ses deux yeux se dressa une veine que l'on appelle la veine de la colère. Il ne se posséda plus⁽¹⁾ ; on le voyait rugir comme le lion. Alors tous les émirs eurent peur et personne parmi eux ne savait de quoi il était question ; ils crurent qu'il s'agissait d'eux. Mais le Khalife dirigea son regard sur le page et lui dit : « Malheur à toi, ô page, qui es-tu ? — Ô maître, dit-il alors, (je suis) le page du vizir secrétaire particulier (Kâtib as-Sirr). » Alors il se tourna vers les émirs et leur dit : « Vous connaissez ce page ? — Oui, dirent-ils, ô maître, c'est le page du vizir. » Alors le Khalife dit au page : « Qui t'a donné cette lettre ? — Ô maître, répondit-il, mon maître⁽²⁾ me l'a donnée et m'a dit : Fais parvenir ceci à Damiette, remets-le au portier et reviens. Or, comme je marchais la nuit, le sommeil s'est emparé de moi ; alors je suis resté jusqu'au matin, puis j'ai marché dans un autre chemin comme on m'avait ordonné. C'est alors que ceux-ci m'ont pris et que la flèche du destin a couru avec ce qui y est renfermé ; or il n'y a de force ni de puissance si ce n'est en Dieu, l'élevé, l'immense ! » Le Khalife dit alors : « Ô mon fils d'occasion⁽³⁾, certes, il n'y a pas pour toi de crime, le crime est pour ton maître, » et il ordonna à l'instant de faire venir le vizir en sa présence. Alors il se présenta, ne sachant pas ce qu'on avait écrit en son absence ; puis, lorsqu'il se tint debout devant le Khalife, celui-ci lui dit : « Malheur à toi, ô maudit ! ô immonde ! Que voulais-tu être dans le gouvernement des Francs, d'un seul coup⁽⁴⁾, lorsque tu es parvenu à l'honneur sous mon règne ; tu étais le Khalife, c'est toi qui étais le seigneur du pays ; que Dieu maudisse quiconque d'entre les chrétiens⁽⁵⁾ revêt le vêtement de l'égarément ! » Aussitôt le Khalife ordonna

(1) Mot à mot : « ne posséda de lui-même ni beaucoup ni peu ».

(2) « Celui que je sers . . . »

(3) Mot à mot : « Ô mon fils du chemin ».

(4) Passage douteux.

(5) Il manque ici la particule *من*.

d'expédier un messenger pour confisquer tous ses biens. Alors ils dressèrent sa potence à l'extérieur de la tente, le garrottèrent et le placèrent sous la potence. Un des plus grands émirs avait pour lui une vive amitié ; il se leva, vint se placer devant le Khalife, se découvrit, témoigna de sa soumission ⁽¹⁾ et dit : « Ô maître, ce chrétien, il serait intelligent ⁽²⁾ que l'on agisse contre lui avec un peu de patience. Cherche et examine ce que je vais t'expliquer ⁽³⁾. Qui est ce maudit ? S'il est pendu, tu auras pendu un chien et il en sera après comme avant. Il a des biens qui défient le destin et obstruent le disque du soleil ; ces soldats ont besoin en ce moment de leur solde ; quand ce chrétien aura été pendu, ses biens seront passés au pouvoir de quelques avides et il n'y aura aucun profit pour le Trésor public si ce chrétien a été pendu. Sinon, (il y a) un autre moyen : les registres des comptes des richesses égyptiennes sont chez lui, et lui, il connaît par cœur les difficultés des impôts. Par Dieu ! si tu le pends, c'est un préjudice pour l'Islam, de toute façon ; mon avis est que notre maître le Khalife prenne tous ses biens et tout ce qui lui appartient en fait d'or et d'argent et le pendre comme un chien afin qu'il aille dans l'enfer ⁽⁴⁾ de Dieu et dans sa malédiction. » L'idée du Khalife prit alors une nouvelle direction, son courroux tomba, il recouvra la tranquillité, approuva l'avis de l'émir et ordonna que l'on remit le chrétien à l'émir afin qu'il le pressurât ⁽⁵⁾ avant de le pendre. L'ordre de remettre le chrétien à l'émir fut expédié ⁽⁶⁾ ; alors on le fit avancer devant lui et lui, à ce moment, se leva promptement et le frappa (d'un coup de poing) sur la bouche, lui brisant quelques dents, lui cracha au visage, lui arracha la barbe, lui fit des reproches et l'insulta en lui disant : « Apporte ⁽⁷⁾ tes biens, ô chien ! ô maudit ! J'en jure par Dieu et par la vie de la tête de notre maître le Khalife : Si tu n'apportes par d'ici trois jours cent mille dirhems avec lesquels nous renforcerons l'armée et les gens de l'Islam qui font la guerre sainte, je te ferai subir un supplice qui n'aura pas d'égal ; je te ferai manger de ta chair, mais je ne te pendrai pas parce que ta pendaison durerait une heure et que tu mourrais tranquillement ; seulement

⁽¹⁾ Mot à mot : « servit ».

⁽²⁾ Mot à mot : « Il est de la mesure de l'intelligence ».

⁽³⁾ Mot à mot : « fouille l'exposé ».

⁽⁴⁾ Mot douteux.

⁽⁵⁾ Mot douteux. Le sens que nous adoptons nous est indiqué par le contexte.

⁽⁶⁾ Mot à mot : « sortit ».

⁽⁷⁾ Le verbe employé ici, comme dans tout le récit, est *أحضر* « porte ».

je te ferai souffrir chaque jour mille morts, ô ivrogne ! ô digne de lapidation ! que la malédiction de Dieu soit sur toi et que ceux qui te regardent te chassent au Maudit, sinon tu seras un visage de mauvais augure pour tous les chrétiens et lorsque notre pays⁽¹⁾ en aura fini avec ces chiens, je te montrerai ce que je ferai à tous les chrétiens ! » mais tout ceci, l'émir le faisait en apparence, en présence des gens, afin que la nouvelle en parvint au Khalife et après cela il préposa pour le chrétien dix des plus forts soldats et l'obligea à apporter cent mille dirhems dans un délai de trois jours ; mais lorsque la salle fut évacuée, que le Khalife fut rentré pour se reposer et que tous les émirs furent dans leurs tentes, au moment de la forte chaleur, l'émir fit venir le chrétien en secret et lui dit : « Malheureux que tu es ! Fais-moi savoir ce que cela veut dire⁽²⁾ et ce qu'est cette vilaine affaire, et explique m'en la cause, car moi j'ai vu ton page au service de cet émir qui a parlé à ton sujet devant le Khalife et c'est à lui qu'est arrivé tout cela⁽³⁾. Il renferme dans son cœur de la haine et de l'animosité pour toi : certainement, c'est lui qui a travaillé contre toi, qui a écrit cette lettre, qui l'a préparée et l'a remise à ton page, » et il lui fit connaître tout ce qui s'était passé. Alors le chrétien soupira profondément jusqu'à ce qu'il dit à l'émir⁽⁴⁾ : « L'esprit chrétien s'est séparé de lui, » et après cela il lui apprit ce qui était arrivé au page, de sa part, et comment il l'avait chassé de sa maison parce qu'il avait corrompu une de ses servantes ; il lui fit savoir aussi comment il avait échappé aux pièges et avait servi chez cet émir-là. Aussitôt, l'émir sut la vérité⁽⁵⁾ ; il fut certain de ce qui avait été fait et une grande porte s'ouvrit à lui pour délivrer ce chrétien de ce malheur. Il le remit aux soldats et leur ordonna de faire bonne garde autour de lui, après lui avoir recommandé d'apporter une bonne charge (d'argent) jusqu'à ce que fût apaisée⁽⁶⁾ la colère du Khalife. Ce jour-là ne fut pas écoulé qu'il apporta dix mille dirhems. Alors l'émir lui dit : « Voici une somme infime. Malheur à toi ! J'achèterai ton souffle, ô maudit, après ton œil ; le soleil n'est pas levé, bien qu'il

(1) وجهنا «notre rivage, notre côté, notre face».

(2) ايش الخبر expression vulgaire, «quelle est la nouvelle?».

(3) Mot à mot : «et il lui est arrivé ce qui est arrivé».

(4) القهر «la contrainte, l'asservissement». Je ne serais pas éloigné de croire à une faute du copiste pour كره.

(5) Mot à mot : «le caché et le visible».

(6) Mot à mot : «demeure en repos».

(7) Ces phrases sont peu claires.

n'apporte pas pour toi beaucoup de profit et de victoire⁽⁷⁾; j'achèterai ton souffle, et aussitôt l'armée de l'Islam deviendra forte!» Bref, en trois jours il apporta cinquante mille dirhems. Alors l'émir les fit apporter tous devant le Khalife; celui-ci lui dit: «Dépense-les pour l'armée et donne-lui du renfort et, quant au chrétien, ne le laisse pas (tranquille), au contraire, arrache-lui sa fortune et après cela pends-le.»

Il sortit donc de chez le Khalife et distribua l'argent aux émirs. Il donna à cet émir jaloux, qui avait tramé cette affaire avec le chrétien, cinq mille dirhems, lui rit au visage, rusa avec lui et lui dit à l'oreille: «Certes, cet argent vient de Dieu et de toi, ô chef des émirs!» Alors il se mit à rire et laissa échapper ces mots⁽¹⁾: «Ô maître, lequel t'est le plus cher, du chrétien ou de moi? — Sache, lui répondit-il, qu'un cheveu sur un musulman est préférable pour moi à tous les biens du chrétien; qui est ce chien, pour que je le préfère à toi?» L'envieux eut confiance en lui et lui raconta à l'oreille, lui faisant connaître tout ce qui était arrivé, comment il avait imaginé la lettre avec des signes, des indices et des marques que connaissait le Khalife et, à la fin de son récit, il lui dit: «Regarde ce qui arrive sur l'Islam de la part des chrétiens. Tout ce que je pourrai faire de malpropre, je le ferai avec les chrétiens, et ce qui arrivera (de malheur) sur toi (venant) de Dieu, fais-le passer sur eux, car ils sont nos ennemis en religion et une nation de haine envers l'Islam.» Alors l'émir lui dit: «Ne me recommande pas⁽²⁾, par Dieu, autre chose que de haïr les chrétiens⁽³⁾! Lorsque notre pays sera évacué (par l'ennemi), je te ferai voir ce que je ferai aux chrétiens. Mais ce n'est pas le moment, à cause de la guerre⁽⁴⁾ et de l'événement grave où nous sommes.» L'émir apprit la chose avec certitude et la cacha à (son) maître le Khalife, afin de ne pas obtenir une accusation contre l'émir et indisposer par là les cœurs des émirs à cause de lui, semer la division parmi les Musulmans et donner à l'ennemi le trépas⁽⁵⁾ et la victoire. Cet émir était intelligent, supérieur, aimé parmi les chrétiens et ne cherchait à léser personne d'entre les hommes, ni musulman, ni chrétien, ni juif; son cœur était noble, plein de haine contre cet émir envieux

⁽¹⁾ Mot à mot: «il lui tomba dans sa langue...»

⁽²⁾ Mot douteux.

⁽³⁾ Mot à mot: «que je ne haïsse les hommes parmi les chrétiens.»

⁽⁴⁾ بَيْكَار désigne plutôt une bataille. Un auteur arabe n'aurait pas employé ce mot.

⁽⁵⁾ i. e. l'action de causer le trépas, de semer la mort parmi les musulmans.

pour le chrétien, qui avait machiné contre lui cette action vile, afin de le faire périr. Cet émir, craignant Dieu, cacha ce qui était dans son âme : il ne fit pas connaître au chrétien ce qu'il avait entendu de cet envieux, mais il s'appliqua avec zèle à ce que le chrétien apportât l'argent, parce qu'il savait que son argent lui reviendrait avec surcroît lorsque la vérité serait reconnue et que le mensonge serait dénoncé⁽¹⁾. Cet émir ne cessa pas de le presser, de le faire souffrir beaucoup et de le menacer jusqu'à ce qu'il eut rassemblé (la somme de) cent mille dirhems d'argent et d'or. Il les distribua tous aux soldats par ordre du Khalife ; après cela il l'emprisonna chargé de fers, enchaîné, vint près du Khalife et lui dit : « Ô, maître, la totalité de ce qu'a apporté le chrétien a atteint (le chiffre de) cent mille dirhems : cette somme est mince à côté de ce qu'a accumulé le chrétien et il est certain que moi je tirerai de lui plus que cela, mais il est d'utilité que tu penses à la ruine de l'ennemi et que nous laissons ce chien en prison jusqu'à ce que nous l'ayons dépouillé de son argent, et alors nous le pendrons comme le plus misérable chien. »

Ils rangèrent les soldats et poussèrent une machine de guerre⁽²⁾ très haute jusqu'aux portes de Damiette. Puis ils restèrent à l'assiéger soixante-dix jours. Les musulmans recevaient chaque jour du renfort, des Arabes, des Turcs, du peuple et de la basse classe. Lorsqu'ils furent sur le point de prendre la ville, les Francs les devancèrent, cherchèrent les galéaces et désertèrent la ville après avoir perdu beaucoup de monde et avoir fait périr des multitudes de musulmans, qui ne peuvent être ni comptées ni évaluées. Le grand nombre seul eut raison de la bravoure. Nombreux étaient contre eux les soldats de l'Islam qui ne craignaient pas la mort⁽³⁾. Après cela ils ouvrirent les portes de Damiette et traversèrent (le fleuve, se dirigeant) vers elle, or ils n'y trouvèrent pas, en fait de Francs, un seul homme qui pût leur donner des nouvelles. Ils firent venir alors ses habitants, les rassurèrent, les affranchirent des exactions (dont ils étaient l'objet) et disposèrent une chose (?) qui observait le fleuve⁽⁴⁾ et des soldats en grand nombre qu'ils laissèrent dans⁽⁵⁾ le poste de Damiette entre les

(1) Mot à mot : « s'éloignerait ».

(2) Mot douteux. **سور** désigne un gros animal, un monstre en général et peut bien être le nom donné à une machine de guerre ; ce sens nous est d'ailleurs fourni par le contexte.

(3) Cette phrase est très obscure ; il paraît y avoir une ligne d'oubliée entre **الجماعة** et **كثيرة**.

(4) Probablement une tour, un fortin d'où l'on faisait le guet.

(5) Mot à mot : « dans son poste ».

deux fortins (bourdj)⁽¹⁾, et construisirent leurs ouvrages avec le bois des Francs. Lorsqu'ils s'éloignèrent au retour, le Khalife pensa à son vizir et prescrivit de le pendre; alors l'émir se présenta et lui remit un *fetwa* (consultation juridique), je veux dire un papier écrit, dans lequel il lui demandait une décision sur l'affaire du chrétien, disant : « Que dirait notre maître le Khalife (que Dieu le rende puissant, l'assiste contre ses ennemis et le fasse parvenir à ses vœux!) au sujet d'un homme Protégé⁽²⁾ qu'a violenté un homme musulman, qui a été injuste envers lui, s'est appliqué à le faire périr et à faire périr toute sa race et sa nation et qui a mis en œuvre sa ruse, sa tromperie et les subtilités de sa pensée à perdre les biens du Protégé, à s'emparer de son harem et à le piller, tandis que le musulman susdit pensait que tout ce qu'il faisait de désagréable envers le Chrétien protégé comportait en soi une rétribution et une récompense, parce qu'il est son ennemi en religion. Mais ce Protégé est innocent⁽³⁾ de tout ce qu'on lui a attribué et son honneur est propre, pur⁽⁴⁾, blanc comme le soleil. Fais-nous connaître, ô Khalife (lieutenant) de Dieu sur Sa terre, s'il est permis au musulman de causer la ruine du Protégé sans (qu'il soit coupable d'un) crime. Réponds-nous par une décision là-dessus. Que la miséricorde de Dieu soit sur toi, sur tes parents et sur tes aïeux, les purs, jusqu'au jour de la Résurrection. Amen! Amen! » Lorsque le Khalife eut lu le *fetwa*, il écrivit au dos : « Il n'est pas permis au musulman d'opprimer le Protégé, et s'il l'a opprimé injustement, Dieu (qu'il soit exalté!) tirera vengeance du musulman, car les Protégés chrétiens et juifs sont sous la protection des musulmans et sous leur égide, parce qu'ils payent la capitation. Or quiconque a été injuste sur un des Protégés, quel qu'il soit, nous prendrons sur lui le droit de Dieu. Salut! » Lorsque l'écrit parvint de la main du Khalife à celle de l'émir, il s'en réjouit, le mit dans son portefeuille⁽⁵⁾ et sortit pour pendre le chrétien parce que le Khalife avait prescrit de le pendre comme le récit en a été donné plus haut et qu'il avait été impossible à l'émir d'éviter au chrétien qu'il fût préparé

(1) C'étaient deux fortins situés vis-à-vis l'un de l'autre sur les deux rives du Nil, de chaque côté de la tour dressée au milieu du fleuve, et reliés entre eux et à cette tour par une chaîne de fer qui interdisait l'entrée de la ville aux navires ennemis. Cf. notre *Rapport sur une mission*

à *Damiette*, dans ce *Bulletin* (tome II, p. 1).

(2) ذمي, voir la note 2, p. 52.

(3) Mot à mot : « est exempt ».

(4) Le texte dit par erreur نظيف « impropre, impur » au lieu de نظيف.

(5) Mot à mot : « dans son sac ».

à ce supplice ⁽¹⁾. A ce moment, il demanda le chrétien et le page et dit au chrétien : « Celui-ci est ton page, ô chien ! — Oui, dit-il, ô mon maître, mais je jure par Dieu l'immense, à qui aucun mystère n'est caché, que ce page je l'ai chassé de mon habitation depuis un certain nombre de jours, parce qu'il a vécu dans le désordre et a commis l'adultère avec une de mes servantes. » Alors l'émir dit au page, comme s'il ne connaissait pas l'histoire, comme s'il n'avait pas eu vent de l'affaire : « Malheur à toi ! lorsque tu es sorti de chez ce chrétien, chez qui es-tu allé et as-tu servi ? » Alors le page dit : « Ô maître, j'ai été chez l'émir Sahm ad-Daulat. » Alors l'émir commanda que l'on jetât le page à la renverse qu'on dressât pour lui quatre pieux en terre, qu'on l'y traînât par les deux mains et les deux pieds, et il ordonna qu'on lui préparât de la poix liquide, je veux dire de la résine et du feu ⁽²⁾. L'émir ordonna ensuite de mettre à nu le ventre du page et de verser dessus la poix et le feu ; alors on fit comme il avait ordonné et il commença à crier et à appeler au secours, mais en vain. L'émir lui dit alors : « Tu veux être délivré de ce supplice ? Avoue la vérité et fais-nous connaître qui t'a donné la lettre. » Il lui fit donc savoir l'événement depuis le commencement jusqu'à la fin, et aussitôt l'émir passa avec lui jusque chez le Khalife, tandis que le chrétien se résignait à la volonté de Dieu et de la sainte Barbâra et que le nom de la sainte Barbâra était dans sa bouche nuit et jour, matin et soir, (lui demandant) qu'elle jetât les yeux sur lui et qu'elle le délivrât de son malheur, et il criait de la partie la plus pure de son cœur : « O Dieu ! La Sainte Barbâra, par ses prières, par l'effusion de son sang et par son appui et son entremise, m'a sauvé ! » Lorsque l'émir passa avec le page chez le Khalife, il recueillit son aveu de la vérité devant le Khalife et lui fit connaître toute l'affaire. Alors le Khalife dit à cet émir-là : « Sors et recherche l'auteur, l'artisan (de ce méfait), fais-lui avouer la vérité et fais-le venir devant moi. — Ô maître, dit l'émir, lorsque nous avons pris l'or du chrétien et que je l'ai distribué parmi les émirs, j'ai donné à l'émir débiteur du chrétien cinq mille dirhems et je lui ai dit : Cet or, c'est grâce à toi ⁽³⁾ qu'on l'a obtenu ; et, de parole en parole, je lui ai fait avouer ⁽⁴⁾ tout ce qui était arrivé, le faisant venir peu à peu (à l'aveu), tandis qu'il se frappait la tête et que sa jalousie

⁽¹⁾ Mot à mot : « qu'il fût attribué à ce but ».

⁽²⁾ Probablement de la résine enflammée.

⁽³⁾ Mot à mot : « tu es la cause de son acquisition ».

⁽⁴⁾ Mot à mot : « je l'ai fait descendre de parole en parole jusqu'à ce qu'il m'a avoué... »

pour ce chrétien débordait de son cœur. C'est lui qui le tuera. — Et pourquoi, dit le Khalife, ne m'as-tu pas dit cela à ce moment? — Ô maître, dit-il alors, nous étions en guerre et j'ai redouté une sédition des émirs; l'ennemi touchait au succès et nous, à la crainte⁽¹⁾; l'organisation de l'Islam se gâtait; il n'y avait alors rien de mieux que de se taire et je jetai le soupçon à la tête du chrétien pour que ce fût lui et non un des plus grands émirs de l'Islam. » Le Khalife dit alors à cet émir-là : « Quel est ton avis dans ce cas difficile⁽²⁾? — Ô maître, dit l'émir, la main de Dieu est sur le cœur du roi; or qu'a tracé Dieu dans ton cœur? Certes l'ennemi s'est enfui de devant toi et il n'est pas resté d'ennemi à notre maître le Khalife, par la Grâce de Dieu (qu'il soit exalté!). Alors fais le nécessaire et retiens le chrétien près de toi plus qu'il n'a été (jusqu'ici), car Dieu a purifié son honneur et a fait dissiper son souci et la vérité s'est éclaircie du mensonge. » Le Khalife ordonna aussitôt et sur l'heure de pendre le page et à l'instant ils le pendirent. Il commanda aussi que tout ce qui avait été fait à ce chrétien serait fait à cet émir envieux : il ne serait pas pendu et aucune goutte de son sang ne serait répandue, parce qu'il n'avait pas comploté⁽³⁾ contre les musulmans et que sa haine s'était exercée seulement contre le chrétien, or les juges ne déclarèrent pas licite pour lui la peine de mort, mais seulement les fers et l'emprisonnement sous terre; il versèrent tous ses biens au Trésor de l'Islam et accordèrent, sur ces biens, une somme qui fut laissée à sa femme et à ses enfants et prescrivirent son emprisonnement perpétuel, sans espoir de salut, jusqu'à la mort. Quant à ce qui est du chrétien, le Khalife décida qu'on lui rendrait ses biens; alors cet émir, qui était son ami⁽⁴⁾, cria à haute voix que l'on n'avait pas demandé de lui un seul dirhem et il lui fit savoir ce qu'il se proposait. Or, lorsque le Khalife prescrivit de lui rendre ses biens, (le chrétien) entra chez lui, baisa la terre et dit : « Ô maître, à toi (appartient) la grâce! Je suis venu vers toi : tout ce que je possède vient de ta faveur et ce que j'ai obtenu vient de ta puissance, et j'ai beaucoup de tes faveurs et de tes aumônes dont je n'ai pas besoin. » Alors le Khalife lui montra sa bonne humeur et lui dit : « Nous avons rétabli ce qui est licite⁽⁵⁾. » Il se fit

⁽¹⁾ Passage obscur. Le texte dit : l'ennemi, le succès surgissait pour lui et la crainte de nous.

⁽²⁾ Mot à mot : «cet événement compliqué».

⁽³⁾ Mot douteux.

⁽⁴⁾ Mot à mot : «cet émir aimé».

⁽⁵⁾ Ou : nous avons résolu une difficulté.

humble, baisa la terre devant lui et lui présenta ses services ; le Khalife reprit : « Épreuves-tu un désir que je puisse satisfaire ou un besoin qui dépende de moi ? — O maître, dit-il, j'ai sur tes aumônes un désir qui n'est pas coûteux ⁽¹⁾. — Dis ce que tu veux, et ce que tu désires te sera assigné. Je n'ai rien à te refuser ⁽²⁾. — Ô maître, dit-il alors, mon intention est de construire une église près de ma maison, car l'église est éloignée de ma famille et toutes les fois qu'ils s'y rendent, les enfants des musulmans les dérangent et les insultent. » Alors le Khalife lui dit : « Ceci est facile ; descends chercher la signature des juges et reviens chez moi, car leur signature écartera tout blâme de leur part et de la part du peuple et des censeurs ; leur signature restera comme le sabre tranchant et après cela j'écrirai, moi, ma signature au-dessus de celle des juges et quiconque te contredira, tu lui couperas le cou. » Alors il descendit de chez le Khalife, joyeux, content, et n'alla pas à son hôtel, mais se dirigea chez le juge, lui donna quelque gratification, prit sa signature et fit de même avec chacun des juges de même espèce ; il y en avait parmi eux beaucoup de catégories : les uns écrivirent leurs signatures et ne se fièrent pas à lui ⁽³⁾, les autres reçurent (une gratification) de lui et lui écrivirent (leurs signatures) ; bref, il prit les signatures de tous, depuis les plus grands jusqu'aux plus petits. Il monta chez le Khalife et lui fit voir leurs signatures et, à l'instant, le Khalife lui prescrivit qu'il construirait une seule église. Il lui fixa une somme d'argent ⁽⁴⁾ du Trésor public (Baît al-mâl), mais il se prosterna et dit : « Ô maître, j'ai fait le vœu que l'église serait bâtie avec mon argent. » Alors il lui répondit : « Préoccupe-toi des ennemis et celui qui t'attaquera, fais-le moi connaître, afin que je me paye sur son existence et que je coupe sa vie ». Le chrétien envoya à la place forte de Damiette et à Alexandrie pour demander des bois ; il lui vint des bois de deux-cent dix églises, partie avec son argent, partie comme service pour lui (à titre gracieux). Ses vues étaient de commencer la construction de deux églises, l'une au nom de Sergius et l'autre au nom de sainte Barbâra et d'achever leur construction avec la permission de Dieu ⁽⁵⁾ (qu'il soit exalté !), dans sa bonne direction et son salut. Personne n'osa faire une seule objection contre lui et lorsque

⁽¹⁾ Mot à mot : « nombreux ».

⁽²⁾ Mot à mot : « tu as des désirs sans refus ».

⁽³⁾ *i. e.* ne voulurent rien accepter de lui. Passage douteux.

⁽⁴⁾ Mot à mot : « des dirhems ».

⁽⁵⁾ *i. e.* de les commencer sans autorisation et de s'en remettre à Dieu pour se voir accorder la permission de les achever.

les deux églises furent terminées à l'intérieur d'après la meilleure disposition et le plus parfait arrangement, comme la colombe blanche, le père patriarche y fit le prône et ce fut une allégresse considérable à Miṣr parmi les Coptes.

Quelque temps après, le Khalife entendit raconter que le vizir avait bâti deux églises; il le fit venir, le chassa, le repoussa et lui commanda d'abattre l'une d'elles, de démolir celle qu'il choisirait, et de laisser debout celle qu'il admirerait (le plus). Alors il descendit, portant sur lui l'arrêt; il était abattu, brisé; il vint ainsi à l'église de Sergius. Il resta alors saisi d'étonnement de la beauté de sa construction, de sa régularité⁽¹⁾, de son équilibre et de son ampleur. Il disait: « Celle-ci, je ne la démolirai pas ». Puis il la laissait et venait à l'église de Barbâra, la regardait, soupirait et criait (témoignant) de la violence (de son) chagrin; alors il disait: « Celle-ci, je ne la démolirai pas, je viendrai démolir l'autre ». Puis les gardes le prenaient et allaient à l'autre église, ayant à leur suite des musulmans qui portaient du pain pour manger et de l'eau pour boire⁽²⁾, et munis de haches et de pelles pour la démolition. Lorsqu'il arriva à l'église de Sergius, il la regarda, plein d'angoisse; il (refusa) de manger et de boire; bref, il se mit à passer de l'une à l'autre, ne pouvant ouvrir la bouche et dire: « Démolissez celle-ci ». Mais le Khalife avait ordonné aux gardes de prendre patience jusqu'à ce qu'il aurait choisi l'une d'entre elles pour la démolir. Ils attendirent donc patiemment après lui. Quant à lui, accablé d'outrages⁽³⁾, de soupirs, d'affliction, d'abstinence, de soif et de cette marche entre les deux églises, abreuvé des affronts de ses ennemis, la vésicule qui contenait son fiel creva et il tomba mort. Il s'appuya aux murs des deux églises, ses deux yeux se renfoncèrent dans ses orbites, ses regards devinrent fixes et il fit signe aux assistants de lui verser à boire un peu d'eau. Ils lui apportèrent de l'eau, mais ils le trouvèrent mort⁽⁴⁾. Dieu avait donné le repos à son âme. Les gardes montèrent aussitôt chez le Khalife et lui apprirent la mort du vizir. Cette mort lui fut pénible et causa chez lui une grande émotion. Il posa (sa) serviette sur son visage, versa des pleurs amers et tomba en défaillance par suite de sa violente tristesse, disant: « A partir d'aujourd'hui, mes affaires iront à la diminution et à la perte! » Alors les grands et les émirs se levèrent, baisèrent la terre devant

⁽¹⁾ Mot à mot: « de sa forme carrée ».

⁽²⁾ Passage obscur.

⁽³⁾ Mot à mot: « à cause de la tromperie... »

⁽⁴⁾ Mot à mot: « qui venait de mourir ».

lui et dirent : « Dieu ! Dieu ! Dans tes affaires, Dieu te suffit. Parmi les hommes, il y en a beaucoup comme lui et de plus fidèles que lui ; les prophètes sont morts malgré la perfection de leur dignité⁽¹⁾, ainsi que les rois et les Khalifes, les Chosroès et les Césars, et le monde n'a jamais été appauvri à cause d'eux. Que Dieu accorde une prolongation dans l'échéance (de la mort) de notre maître le Khalife (lieutenant) de Dieu sur Sa terre. C'est toi, à qui le temps manque et pour qui luttent les existences, parce que toi, tu es de la quintessence mahométane, tu es une personne comme il y en a peu : tu auras besoin de temps⁽²⁾. Que Dieu prolonge ton existence ! Voilà ce qu'il t'a donné au tombeau de ton père et de tes aïeux vénérés. Quitte ton chagrin⁽³⁾, dilate ton âme et étends ton espérance ! » Alors il leur dit : « Par Dieu ! ô émirs, celui-ci était le meilleur des vizirs et le meilleur des conseillers. J'ai toujours été béni pour (avoir suivi) son avis et son conseil. Toutes les fois que je l'ai interrogé, il m'a répondu par cœur, (me donnant les explications) d'un registre de comptabilité ». Ils dirent alors : « Ô maître, c'est vrai ce que tu retraces et nous, nous savons tout cela à son sujet et plus encore⁽⁴⁾, parce qu'il était le plus habile comme travail et comme zèle ». Le Khalife ordonna à l'instant de laisser l'autre église et de prodiguer des honneurs aux gens du vizir, à sa femme et à sa fille. Alors on laissa les deux églises bâties et elles (sont restées) jusqu'à nos jours. Il n'y a pas à Miṣr de plus belles constructions qu'elles. Lorsque le vizir fut mort entre les deux églises, ses gens, sa femme, ses filles et ses enfants vinrent le voir et poussèrent sur lui de grands gémissements au point qu'ils firent pleurer le roc des larmes de sang. Cette nuit-là, lorsqu'ils l'ensevelirent dans l'église de Barbâra, il descendit du ciel, sur son tombeau, une lumière qui remplit l'espace⁽⁵⁾, au point que les musulmans pensèrent que la ville avait été incendiée, et que les on-dits⁽⁶⁾ se répandirent parmi eux. Les uns disaient que c'était la foudre qui était descendue du ciel pour brûler l'église des chrétiens, d'autres disaient que ce n'était pas la foudre et que si c'était la foudre, l'église

(1) *i. e.* de leur rang dans le Paradis.

(2) Ou : « à cause de qui l'époque serait appauvrie (si tu mourais) ».

(3) Mot à mot : « détache ce qui est en toi ».

(4) Mot à mot : « plus complet ».

(5) Mot douteux. La racine *سطع*, *صطع* dans

notre manuscrit, désigne l'action de monter et de se répandre de la lumière, des rayons solaires, de l'aurore. Il est clair qu'il est question ici d'une lumière céleste.

(6) Mot à mot : le « il a dit » et le « on a dit ».

et la ville auraient été incendiées, que ce n'était qu'un éclair qui avait illuminé tout; d'autres dirent que les chrétiens avaient eu connaissance⁽¹⁾ d'un endroit où un feu s'était allumé en voltigeant sur les côtés de l'église et aussitôt ils montèrent vers la ville ainsi que les piétons, les gardes du corps, les troupes de la garde et les chaïkhs des quartiers (*hârat*) : tout le monde voulut aller vers l'église. Ils entrèrent dans l'église neuve; ils trouvèrent alors une lumière d'auprès de Dieu, comme une colonne de feu qui enveloppait tout, depuis la partie supérieure (de l'église) jusqu'au tombeau que l'on avait réservé au vizir. Lorsque le matin fut arrivé, ils informèrent le Khalife de ce qui s'était passé, alors il dit: «Je suis le premier qui ajouterai foi à ce (récit) parce que mon secrétaire était un homme béni, un prince évident, de la main, de l'œil et du corps; rien de mauvais ne me sera démontré à son sujet. Que Dieu (qu'il soit exalté!) lui fasse miséricorde!» et à l'instant même et sur l'heure il fit demander son fils, qui n'avait pas encore atteint sa majorité. Le jeune homme accourut à son service, se prosterna, baisa la terre et montra la bonne éducation qu'il avait reçue de son père. Le Khalife s'élança au-devant de lui et le regarda; alors il le vit qui présentait un extérieur plein de santé, une figure douce, une langue agréable, une parole éloquente. Il s'en réjouit donc et lui dit⁽²⁾: «Ô mon enfant, certes ton père est mort, mais moi aujourd'hui je te tiendrai lieu de père». Alors le jeune homme lui témoigna sa déférence et tomba le visage à terre devant le Khalife. Celui-ci le fit avancer au diwân de son père et il vit ses secrétaires bons et mauvais; alors il demanda un des professeurs d'écriture et le lui remit en lui disant: «Occupe-toi de l'instruction de ce jeune homme et je te paierai moi-même». Alors il le reçut et s'appliqua assidûment à son instruction. Le jeune homme était habile, adroit, intelligent, doué de sagacité, éveillé, et surtout il désirait ardemment la charge de son père; en moins d'une année, il apprit les principes du calcul et de la calligraphie, le bon arabe, depuis les principes et la grammaire, et Dieu (qu'il soit exalté!) acheva son éducation en toute branche de science⁽³⁾. Il fut confirmé dans la charge de son père et se mit à faire de nombreuses aumônes sur le tombeau de son père. Il faisait des fêtes, chaque année, à la sainte, et, jusqu'à nos jours,

⁽¹⁾ Mot douteux.

⁽²⁾ Mot à mot: «en jouant».

⁽³⁾ Mot à mot: «le perfectionna de toute bonne science».

la commémoration de la sainte Barbâra (s'est perpétuée) trois fois par an. Ils la font sans jamais s'interrompre et dans la nuit du 4 (du mois) de Kânoûn, jour de fête de la sainte Barbâra, se réunissent dans cette église toutes sortes de Coptes habitant à Miṣr et au Caire au point que la ville est bondée de monde et la plupart des musulmans (y) viennent en procession⁽¹⁾. On raconte parmi les hommes des merveilles et des étrangetés sur le corps de la sainte; certains hommes viennent secrètement et oignent d'huile leurs visages sur son corps pur, demandant une bénédiction pour l'huile de (leurs) lampes⁽²⁾. La plupart d'entre eux ont en elle une confiance illimitée; ils donnent son nom à leurs filles et ne se soucient de personne⁽³⁾; la moitié des femmes d'Égypte portent le nom de Barbâra et personne ne trouve cela mauvais: c'est devenu une habitude parmi les hommes de nommer leurs filles par ce nom. Que ses bénédictions et ses prières soient avec celui qui a mis tout son zèle à écrire⁽⁴⁾ cette vie glorieuse; le Maître pourvoira à son remplacement et le bénira, lui pardonnera ses péchés et donnera le repos à son âme et aux âmes de ses enfants par les prières de la dame, la Pure, l'Honorée, la Sainte Barbâra. Amen! Amen! Amen!

(Sera continué.)

G. SALMON.

(1) Mot à mot: «à la manière d'un convoi funèbre».

(2) L'huile des lampes que les Coptes entretenaient

constamment allumées dans leurs habitations.

(3) Passage douteux.

(4) Mot à mot: «qui s'est appliqué et a écrit».